شهادات عربية

- محمد لطفي اليوسفي
- سيف الرحبي
- هاشم شفيق
- وفاء العمراني
- جهاد هديب

فلسطين.. المكان الذي غدر به الزمان

محمد لطفي اليوسفي*

الهبوط إلى العالم السفلي

سأحدّث عن المكان:
لأنني كنت هناك في أريحا ورام الله وبيت لحم ومخيّم الأمعري والبيرة وبيتونيا ومشارف القدس؛ لأنني ذهبت للمشاركة في مهرجان فلسطين الشعري الأول، لكن الشعب الفلسطيني العظيم أبى إلا أن يجعلنا نعيش فلسطين متوهّجة غضبا ودما ونارا، فشهدنا انتفاضة الأقصى تسطّر أمجادها؛ ولأنه من الصعب على من يدخل فلسطين أن يشفى منها تماما، فحالما يطأ ترابها، يتسلّل شيء ما قدسيّ، شيء سحريّ، هشّ، مشتهى، شيء يخترق الجسد ويستبدّ بالروح، سأحدّث عن المكان.
لأنني رأيت كيف يتخفّف المكان من مادّيته وصلابته ويستعير من الحلم شفافيته وفتنته؛ لأنني رأيت الحلم يشهد من التكثيف ما يحوّله إلى مكان صلب قاس مهيب يربك الجسد ويدوّخ الحواس، سأحدّث عن المكان. عن الهبوط الجحيمي إلى أرض أريحا الصابرة تحت شمس قرّرت أن تحرق كبد العالم؛ عن جبالها الرواسي وخطوات المسيح على جبل التجربة؛ عن رام الله الناظرة صوب القدس المحاصرة بشدّاذ الآفاق؛ عن وادي النار؛ عن بيت لحم؛ عن كنيسة المهد؛ عن فلسطين المكان الذي غدر به الزمان.
سأحدّث عن أب مثقل بالهمّ مكدود، نتقدّم إليه بالعزاء فيغالب الوجع مزدهيا بأنه قدّم ابنه الطفل محمد نبيل علي حامد البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة فداء لفلسطين وكرامة الأمة العربيّة. عن المكان عدوانيا ووحشيا؛ عن المكان واقعا أرضيا مضرّجا بدم الأبرياء؛ عن الفعل رسوليا؛ عن الوجع ربّانيا؛ عن قطّة هدّها الإعياء رأيتها تهبط مدرجا يتفرّع عن شارع النجمة طريق المطارنة المتلقّت صوب كنيسة المهد. سأحدث عن الدمع مكتوما وسرّيا؛ عن الأرض أُمّاً تتغذّى بلحم بنيها؛ عن عرب الجهالين يحيطون بالقدس

خياما وقطعان ماعز تبحث بين الصخر عن أعشاب وهميّة لا ترى وتعلك الضجر؛ عن طفلة تلبس مريلة صفراء وقفت في الساعة التاسعة صباحا قدّام بيت متداع في مدخل البيرة تراقب أطفالا في سنها لم يتجاوزوا السابعة يجمّعون حجارة وإطارات سيارات استعدادا لمواجهات بعد الظهر.
عن الزغاريد مأهولة بالنوح مكتوما سأحدّث؛ عن معركة سرّية تجري في المكان بين الألوان، الأصفر والأزرق والأبيض وما بينها من صراع رمزيّ إشاريّ مدوّخ؛ عن المغارة التي سجد فيها المجوس قدّام المسيح وطرحوا كنوزهم ذهبا ولبانا ومرّا؛ عن المساجد تبكي مسجد عبد الله بن عمرو بن العاص في الرملة وقد صار مرقصا ليليا، عن الكنعانيين يسرق حلمهم وتراثهم ومدائنهم وطريقة مقامهم على الأرض؛ عن جبل أبو غنيم؛ عن قمم الجبال والهضاب مزروعة بالمستوطنات؛ عن المكان حين يصبح جندا ويصير عسكرا وخسرانا لبني البشر أجمعين، عن الصبر فلسطينيّا، عن الرّعب صهيونيّا، عن اتفاقات أوسلو يذروها مكر ابنة صهيون الضالّة هباء ومرارات، زبدا وطواحين ريح.

* * *

توجّهنا إلى فلسطين بعد يوم واحد من استشهاد محمد الدرّة في حضن والده يوم الأحد 1 تشرين الأوّل 2000، قتل الطفل على مرأى من الدنيا قاطبة. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا الشمس أفلت. وحده الدم ظلّ صارخا في العراء. قتل الطفل البارحة وها نحن نتوجّه صوب فلسطين، صوب جسر الملك حسين. صباح اليوم الإثنين 2 تشرين الأول، أي بعد مضي 52 سنة لا غير على وقوع فلسطين في قبضة اليهود شذّاذ الآفاق، وبعد مضيّ 10 سنوات فحسب على محرقة العامريّة واللّحم العربيّ مشويّا حتى التفحّم، وبعد مضيّ سبعة قرون لا أكثر على رحيل القائد الأعظم صلاح الدين الأيوبي. صار عمر الولايات المتّحدة الأمريكيّة قرنين من الزمان لا غير.

* * *

هبوط مدوّخ باتّجاه الغور حيث نهر الأردن. مكدودة تنزل الحافلة على الطريق الملتوية باتجاه المكان الأشدّ انخفاضا في العالم، حوالي 333 مترا تحت سطح البحر. الضغط يصمّ الآذان. هناك بعيدا في الأفق تبدأ جبال أريحا بالظهور، جرداء لا نبت ولا شجر، شهباء مشوبة بصفرة باهتة حتى لكأنها غيوم هائلة تجمّدت على الأرض. هكذا يبدو المشهد للوهلة الأولى. مشهد قياميّ لا يمكن أن يجري إلا في حلم. لكأن المكان نفسه يفقد صلابته كلما اقتربنا منه ويتخفّف من مادّيته فتفقد الموجودات ألفتها لتتّشح بغلالة من القسوة والفظاظة.
في غور الأردن، لا شيء يدلّ على وجود حياة سوى بعض مزارع الموز التي تبدو مثل بقع خضراء محاصرة بالقحط والسخط في آن. مزارع الموز تبدو مصابة بالذعر. شجيرات متلاصقة متراصّة، بعضها متداخل بالبعض الآخر، كأنه يبحث عن حضن أو عن بعض من دفء. بالقرب من تلك المزارع، حدثت في

ذات يوم معركة الكرامة. دم فلسطيني ودم أردنيّ توحّدا ضدّ جيش الأعداء. إشراقة نور باهت في عتمة الليل العربي، التماعة نور خافت لم تتمكّن رغم كلّ ما قيل حولها من محو ما حدث في شهر أيلول، أيلول الأسود سيّد الشهور وأقساها في زمان العرب العاربة وأختها العرب المستسلمة.

على الطرف الآخر من الجسر الفاصل بين الأردن وأرض فلسطين التي صارت تسمّى حتى لدى العرب أنفسهم إسرائيل، بعضٌ من حياة توحي به أشجار أريحا الصابرة ومزارعها التي تبدو مثل بقع خضراء رميت في المكان صدفة واتّفاقا. كنا نتقدّم باتجاه فلسطين، الحلم العربي الذي ما يفتأ يعاود الظهور في كلّ مرّة تصبح فيها الكرامة العربيّة مجرّد ذكرى، وتصبح الشعوب العربيّة مثل الهوام، لا أمل ولا فرح ولا نسمة من حياة.

فلسطين لم تعد موجودة على خارطة العالم. لقد تمّ محو الاسم. حدث فعل استبداله. ونحن لا نتقدّم باتجاه بلد، بل نمضي إلى حلم شرس مروّع أو باتجاه وهم. المكان لا يملك تحت الشمس غير اسمه. واسم فلسطين قد تمّ محوه من خارطة العالم، تم محوه من المعاجم ودروس الجغرافيا حتى لدى بعض المؤسسات الحكوميّة العربيّة المجيدة. لكن الاسم احتمى بالوجدان العربي حزنا صامتا عميقا سنظلّ نتوارثه جيلا بعد جيل. وطوبى للحزانى.

* * *

مشهد خلفيّ يشبه المهزلة: عندما ذهبت إلى السفارة طلبا لتأشيرة العبور إلى الأشبار المحرّرة من أرض فلسطين، كانت نبيلة معي. على شبّاك مكتب الاستقبال وضعت ورقة تحمل البشارة للمواطنين العرب بأن سعر التأشيرة قد تضاعف مرّات. أشارت نبيلة إلى الخارطة وهمست: إنك تذهب إلى بلد غير موجود على الخارطة، إذا ضعت، كيف أبحث عنك في مكان لا يوجد على خارطة الدنيا؟ لم أفهم ما قصدت، فأشارت إلى الجهة اليسرى.

على الجدار، علّقت خارطة ترسم حدود بلدان المنطقة: العراق، والأردن، وسوريا، ولبنان، وإسرائيل، ومصر. قلت لها مداعبا: هذا خطأ مطبعي. فغضبت. قلت: اسمعي، نحن أمّة ذات رسالة عظيمة، حتما سنسترد أمجادنا في نهايات الزمان، وسنسود العالم من جديد. إن غدا لناظره.. هكذا جاءتني الإجابة. قاطعتها قائلا: عندما يحين الحين ويأتي زماننا، سنسمّي أمريكا أرض الرجال الحمر أسياد الدنيا، ونعينهم على طرد الرجل الأبيض زارع الخراب. وسنسمّي المكسيك بلاد المايا والأزتيك. سنثأر لأنفسنا من روما التي روعت أطفال قرطاج، وسنستورد من السماء حكّاما عربا عادلين يملأون بالحلوى والأقلام الملوّنة جيوب الأطفال ولا يأكلون اللحم العربي نيّئا.. في المساء، رفضت أن تعود معي لاستلام جواز السفر، وادّعت أنني أخطو باتجاه خيانة ما. دخلت السفارة وحيدا بعد أن آليت على نفسي ألا أنظر إلى الخارطة. ونجحت في تحقيق هذه البطولة التي ستنضاف إلى أمجاد العرب العاربة والعرب المستسلمة. خيّل إلي أن موظّف السفارة يبتسم لي فابتسمت له.

* * *

الحافلة تواصل التقدّم ودرجة الحرارة تزداد ارتفاعا. كنت على يقين من أننا لا نمضي إلى مكان، بل نتقدّم باتّجاه حلم له كلّ مواصفات الكابوس. هي ذي.. هي ذي فلسطين. الأرض المقدّسة التي برعت في أكل لحم أبنائها المتسابقين إلى الموت. مكان غدر به الزمان. مكان يلتقي فيه يوشع بن نون مع العمالقة من الكنعانيين وربّه إله الجنود يستحثّه في نبرة ساديّة مروّعة على إراقة الدم وقتل النسل وإحراق الزرع. لحظة ويحطّ البراق على حائط المسجد الأقصى وتنفتح السماوات. فيكون إسراء. ويكون معراج، والنجوم تترجّل في ساحة الأقصى. لحظة أخرى ويأتي يهود من شذّاذ الآفاق يهزّون الرؤوس مثل قردة مخبولة بقرب الحائط الذي سيدّعون أنه أعدّ لبكائهم ولتجميع دموع التماسيح في الأرض قاطبة. ريتشارد قلب الأسد يعبر البحار مدجّجا بالضّغينة. صليبيون جاؤوا وأبادوا الناس في عكّا. توني بلير والعجوز الشمطاء أولبرايت التي اكتشفت ذات صباح أنها من نسل يهوذا تأتي هي الأخرى. صلاح الدين الأيوبي العابر من جبال الأكراد على فرس صارع الريح والنوء يأتي منقذا ومخلّصا. دم محمد الدرّة وصمة في ضمير العرب شعوبا وقبائل، حكّاما وسلاطين، هزءا ورزءا وأشياء أخرى. الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي يخرج للتوّ من مقصورة في الأقصى ويمضي باتجاه دمشق. عبد الغني النابلسي هنا أقام، هنا درّس قبل مجيء اليهود بقليل. المغاربة ببرانيسهم الصوفيّة جاؤوا من شمال أفريقيا وخلعوا اسمهم على باب من بوابات الأقصى.
يوحنّا المعمدان يكرز في البرّية قائلا: توبوا لأنه اقترب ملكوت السماء، أليعازر ينهض من القبر، يوسف النجار يسوق حمارا مكدودا ينشد الوصول إلى أرض مصر كي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل من مصر دعوت ابني. عمر بن الخطّاب يترجّل عن فرسه الآن وكبير مطارنة كنيسة القيامة يدعوه للصلاة في كنيسته فيبادله كرما بكرم. صوت في الرامة، نوح وعويل، راحيل تبكي أولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين، هي ذي فلسطين إذن، هو ذا المكان، مكان غدر به الزمان. وللفلسطيني أن يدفع الثمن دما ودموعا. ولنا نحن المقيمين خارج فلسطين أن نسمّي ذلك بطولة كي ندرأ الوجع ونتخفّف من تأنيب الضمير. وطوبى للحزانى!!!

عبور الصّراط: جسر الملك حسين

جسر على نهر الأبديّة. جسر تسيل تحته مياه ضحلة ضاربة إلى الصفرة. هو ذا نهر الأردن. جسر خشبيّ كأنه خربشة بقلم رصاص على ورقة منزوعة من كتاب قديم نهشته الأرَضَة دهرا. جسر متواضع في منتهى التواضع. طوله عشرة أمتار أو أقل. وعرضه بالكاد يتجاوز المترين. في وسطه، في وسطه بالضبط، رسم بالطلاء الأبيض خطّ هو الحدّ الفاصل بين الأردن وفلسطين القابعة في الأسر. والخطّ الأبيض يضعك منذ الوهلة الأولى في حضرة عدالة ابنة صهيون الضالّة التي أعطت للأردن نصيبه من هذا الجسر وأخذت نصيبها. نحن في حضرة قسمة عادلة تشبه جميع المهازل في هذا الليل العربي المثقل بالمكائد وخسران العرب أجمعين. من جديد، تأتي التسمية لتشرع في حبك مكائدها. جسر الملك حسين، يقول الأردنيون والعرب. جسر اللنبي تقول ابنة صهيون والعالم من ورائها. قد يصبح بعد

التسوية الشاملة إن تمّت «جسر الملك حسين واللنبي»، ووقتها سيضطلع حرف الواو بأشدّ أدواره وساخة في تاريخ اللغة العربيّة. سيضعنا في حضرة مصالحة مخزية كأيّامنا.
على يسار هذا الجسر الخشبي الهرم الذي رأى الويلات كلّها، وشهد وصول الإنجليز والأمريكان، ورأى وصول اليهود شذّاذ الآفاق، ورأى خيانات الحاكم العربي وهجرات الفلسطينيين في اتجاه بقاع ستسمّى مخيّم اليرموك، ومخيّم فلسطين، ومخيم صبرا، ومخيّم شاتيلا، ومخيّم الوحدات، ومخيم عين الحلوة، ثم تصير المخيّمات مدنا من إسمنت رماديّ ضارب إلى السواد؛ تصير المخيّمات أحلاما بعودة تزداد استحالة كلما انضاف إلى الزمن العربي ليل آخر –على يسار هذا الجسر المقفل بالوجع ربّانيا– ثمّة أشغال حثيثة.
جرّافات، شاحنات، أعمدة حديديّة ضخمة. تلك تباشير هبات السّلام. تلك ثمار الاستسلام. مرّة أخرى تأتي التسميّة محمّلة بالمكائد. لكن الجذر اللغوي نفسه يفضح ما بين الكلمتين من إنابة ومداورة ومخاتلة. وطوبى لصانعي السلام، مطلوب منا أن نهلّل ونفرح نحن العرب الواقفين على شفا الهاوية. علينا أن نفرح ونهلّل فسيقع استبدال الجسر الصغير، الجسر الخشبي الذي هدّته السنون والويلات تتوالى تباعا، بجسر عظيم كبير ضخم فخم يسرّ الناظرين ويملأ بالبهجة قلوب العابرين إلى أرض كانت تسمّى فلسطين. سيقام جسر يليق بالعلاقة الحميمة التي ستنشأ بين العرب ودولة إسرائيل.
ولنا أن نتخيّل المشهد في المستقبل. ستتوالى الخيرات من هناك، من تلك الأرض التي كانت تسمّى فلسطين عسلا ولبانا ومرّا. سيعمّ الخير والرفاه بلاد العرب من البحرين حتى أقاصي بلاد شنقيط موريتانيا العظمى، وستنال الصحراء الغربيّة نصيبها من الغنيمة، أيضا. وعلى العرب أن يفرحوا، عليهم أن يهلّلوا للصدقات، إسرائيليّة هذه المرّة. ولهم أن يبتهجوا بالنظام العالمي الجديد صانع المعجزات. وكافر كلّ من يردّد قول المسيح ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.
غريب أمر هذا الشعب الفلسطيني، لا يكتفي بالخبز بديلا عن الحياة والكرامة. مدهش أمر هذا الشعب الفلسطينيّ الذي شهد أسلافه خطوات المسيح على جبل التجربة، ورأوا يوحنا المعمدان وعلى حقويه منطقة من جلد وهو لا يتغذّى إلا بقليل من الجراد والعسل البرّي. غريب ومدهش أيضا أمر هذا الشعب الذي سمع أسلافه ذات ليلة حفيف أجنحة البراق وهو يحطّ خفيفا على سور الأقصى والدنيا تضيء. تلك حيل المتخيّل الجماعي وذاك طابعه المقاوم. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بذاكرته المنقوشة في المكان. أزمنة متراصّة مكثّفة. هي ذي فلسطين إذن. زمان تكثّف حتى غدا مكانا وحكايات، أقاصيص وملاحم، سماء تنفتح في وجه الأرض، أرض تتسامى وتتخفّف من ماديتها حتى تصبح كالأثير، ثم يلتقيان، الأرض والسماء يغدوان واحدا.

* * *

مكـــانان.
بنـــايتان.
مدخلان.
والطريق إلى أحشاء الوحش على مرمى حجر. ومثلها الطريق إلى الحلم العظيم، الحلم الضاري الذي نسمّيه فلسطين.

* * *

البناية الأولى متواضعة كأنها وضعت للتوّ على عجل. على مدخلها كتبت لافتة: القادمون إلى السلطة الفلسطينيّة. البناية الثانيّة فخمة عالية عليها لافتة بالعبريّة أعدّت لاستقبال الدنيا والمطبّعين العرب نسل يهوذا. منذ الوهلة الأولى تبدأ المعركة إشاريّة ورمزية. البنايات تحدّث، والمداخل تحدّث، والمكان يحدّث بأن العدالة قد فقدت من الأرض تماما، والسلام هو التجسيد الفعلي للاستسلام. وهو صنوه وسميّه ووجهه المروّع الفاجع. نتخطّى العتبة فيصبح الطابع الإشاري أكثر عنفا. شبابيك ونوافذ. ناس من الفلسطينيين ينتظرون إذنا بالدخول. نساء يرتدين السواد خفرا وحشمة أو حدادا. أطفال في الزاوية واجمون لا يلعبون. ثمة دكّان صغير شبه مقهى أو شبه مشرب.
الدينار الأردني يختفي، وصورة الملك حسين تغيم تماما. ويطلّ الشيكل برأسه الإبليسي. عملة عبدة الذهب نسل ميليكداس. ثمّة شيء يطبق على الروح كالدوار. شبابيك ونوافذ. وراء كلّ شبّاك يجلس أحد رجال الشرطة من الفلسطينيين العائدين مع اتفاقيات أوسلو. يجلس الشرطيّ الفلسطيني الذي كان فدائيا محاربا داخل زيّه الكحلي متعبا مكدودا. وبجانبه مجنّدة صهيونيّة شابّة تجلس مرتاحة في جسدها. مطلوب أن تسلّم جواز سفرك وتصريح الدخول إلى الشرطي الفلسطيني. وهو بدوره يتولّى الحكي مع ابنة صهيون المجنّدة. لكأن الشرطي الفلسطيني يحرص على تجنيبك ويل التعامل مع نسل الحيّات. درع واق هو، أو غلالة مضلّلة. ثمّة في العيون غيض مكتوم. في عينيها حقد شيطاني وفي عينيه وعيد ربّاني. هنا يجلس الفلسطيني الضحيّة ومعه تجلس جنديّة من الجلادين. الدم وسافكه. المقتول والقاتل.
بنت تمثّل السيادة الإسرائيليّة المستندة إلى الحديد والنار والجريمة وأمريكا وساديّة الحاكم العربي. شرطي فلسطيني لم يصدّق بعد أن آلاف الضحايا وقوافل الشهداء في المدن العربيّة وعلى الحدود مع ما كان يسمّى الكيان الصهيوني قد رحلوا سدى. لم يصدّق بعد أن الحلم العظيم صار كابوسا فظيعا. الشرطيّ الذي كان فدائيّا مخفورا بالأغاني الثوريّة، الشرطيّ الذي كان مقاتلا تهابه الدنيا، يجلس الآن مذهولا ويرحّب بالإخوة العرب. «أنت من تونس الخضراء، يا هَلاَ!» قلت: «إنها تصفرّ صيفا حتى لكأنها مصابة بالتهاب الكبد».

* * *

الشرطيّ الذي كان بالأمس القريب فدائيّا يخطو باتجاه الحلم ألوهيا وربّانيا، لم يفقد الأمل تماما. ففي عينيه المكدودتين، يتراءى الأمل معجونا بالتّعب وحاجة الأطفال إلى القوت. لقد كان في تونس، جاءها في سفينة حرص ربّانها على أن يضيف للأوديسا فصلا فاجعا لا يمكن لهوميروس نفسه أن يتخيّل عنفه. حتما لم يكن الربّان وهو يرسي السفينة على شاطئ مدينة بنزرت التونسيّة يدري أنه كان يدوّن في سجّلات خسران العرب ونكد أيّامهم يوما آخر له مذاق النوح وطعم النحيب. الشرطي الفلسطيني الذي تسلّم جوازي، صديقي، هذا الدرع الواقي، هذا الغلالة المضلّلة، كان قبل ذلك في عمّان ورأى قمر جرش في شهر أيلول يهوي من السماء ملطّخا بالدم أحمر زهريّا. القمر ذاته رآه في بعلبك وبيروت وتلّ الزعتر محاطا بالدم مظلما لا ينير.

هذا الفدائيّ الذي ارتدى زيّ الشرطة، يعلم أن الطريق التي اختارها محمد الدرّة هي الطريق المؤدّية. ثمّة فسحة من أمل إذن. ففي اللحظة التي «استتبّ فيها الأمن»، في اللحظة التي صارت فيها الكرامة العربية مجرّد ذكرى بعيدة، في اللحظة التي أيقن فيها الحاكم العربي بأمر أمريكا أن الجماهير العربيّة غدت مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا غاية، عاود الغضب الفلسطيني الظهور ليشير إلى الطريق المؤدّية.

أرض أريحا الصـــابرة

«هذا جوازك، تفضّل، ومرحبا بك في فلسطين». تحاول أن تردّ على تحيّة الشرطي الذي كان فدائيّا وصار الآن صديقا، درعا واقيا، أو غلالة مضلّلة. لكنّ الصوت يخون، وجع اتّخذ من الجسد معبرا وتسلّل إلى عروق القلب. تكتفي بردّ التحيّة بحركة باتجاه القلب. يبتسم.. تبتسم.. هل هذا عبور الصراط. رجفة، رعشة، برد يتسلّل إلى المفاصل، إحساس بلا معنى الوجود أصلا.. شعور بالضآلة، شعور بالعجز، دمع حبيس يثقل الصدر.

في الجانب الأيسر من البناية المتهالكة، ثمّة قبالة المدخل باب ضيّق، باب ضيّق كأفراحنا ينفتح فجأة ونعبر. غسّان زقطان، المتوكّل طه، أذرع دافئة تحضنك. تنسيك للحظة أنك كنت تعبر الصراط. تكاد تنسى أنك صرت الآن في أحشاء الوحش تماما. «يجب أن نسرع، اصعدوا إلى الحافلة، اطلعوا في هذه السيّارة. يجب أن نسرع قبل أن تبدأ المواجهات. سنفتتح المهرجان بعد قليل افتتاحا رمزيا. يا هَلاَ! يا هَلاَ! مرحبا بكم في فلسطين، شرّفتم فلسطين، سنهتم بالحقائب..».

هو ذا المكان: أرض أريحا. لم تعد الجبال مجرّد أشكال تتراءى في الأفق. إنها هنا جاثمة راسية، كلسيّة رمليّة.. ملح وطين.. صفرة باهتة ضاربة إلى الرماد قليلا. الحرارة لا تطاق، والشمس مزمعة فعلا على أن تحرق كبد العالم. جنديّ إسرائيلي مدجّج بالسلاح أشقر على وجهه بثور ورديّة وعلى رأسه قبّعة خضراء يغلق الباب الحديديّ. يصرخ السائق الفلسطيني في وجهه بالعبريّة، لغة شذّاذ الآفاق المسروقة من الكتب واللغات والمتاحف. الجندي يغضب.. ينادي جنديا آخر بشرته البنّية تدلّ على أنه قادم من

إثيوبيا. يأتي شاهرا رشّاشه، عصبيّا متوتّرا، ظلّ يراقبنا، تكاد شهوة الدم تستبدّ بروحه. يجري الجندي ذو الوجه الموشّى بالبثور ورديّة قانية اتصالا هاتفيا من جهاز معلّق على حائط مخفر المراقبة. ثم يفتح لنا الباب الحديدي الأصفر.. نعبر.. يشرع السائق الفلسطيني في شتم العالم ودولة بني إسرائيل. سباب وشتائم وغضب: «الجبناء، نحن نعرفهم وما نخافهم، أوغاد، حلّوا عنّا. هلاَ! هلاَ! بالإخوة العرب في أريحا. انظروا، هنا وقعت مواجهات الأمس، استشهد شابان.. الملاَزم، أيضا، قتلوه أمام بيته، الملازم المكلّف بالتنسيق الأمني.. لو تأخّرت تصاريحكم إلى اليوم، لما عاد بإمكانكم الدخول.. مرحبا، نوّرتوا فلسطين هلاَ!!».

* * *

هي ذي أريحا، هي ذي أرض كنعان التي تفيض لبنا وعسلا، هي ذي أرضك أريحا وقد دارت الحياة دورتها. هي ذي أرض أريحا الصابرة. حين وصل إليها يوشع بن نون ليتجسّسها ويخرّبها، ارتعدت فرائصه هلعا، فحدّث عنها مرتعبا: «إنها تفيض لبنا وعسلا، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتزّ، والمدن حصينة عظيمة جدّا، رأينا فيها أناسا طوال القامة فكنّا في أعيننا كالجراد وهكذا كنّا في أعينهم». وللفلسطيني أن يفخر بأسلافه الذين ملأوا بالهلع قلب يوشع بن نون القادم من التيه العائد إليه. للفلسطيني أن يفخر بأطفاله، فأن يختار طفل موته، أن يمضي شاب لملاقاة دبّابات وعسكر ولا سلاح معه غير جسده وإصراره، فمعنى ذلك أن المقدّس فيه قد تجلّى.

المكان: أرض أريحا، والمشهد عبثيّ تماما، مشهد يليق بشريط سينمائي غرائبي لا يقدر حتى غودار، المناصر لقضيّة فلسطين، أن يتخيّله. أرض رمليّة كلسيّة صفراء. أرض أشدّ قسوة من صحراء. وفي الوسط بناية ضخمة عالية شاهقة تمتدّ بين السماء والأرض مثل لعنة ارتعدت لها فرائص الأرض. إنه كازينو أريحا، بعض منجزات السلطة العائدة. الفلسطينيون لا يذهبون إلى هذا الكازينو. وتأتيه الجنسيات الأخرى لتتسلّى. قيل إنه يدرّ من الأموال ما يعين السلطة على تحمّل أعباء السنوات العجاف، بعد أن تراجع الدعم العربي وشحّ المال والماء والأمل.

بيت الشعر بأريحا: افتتاح سريع، تمجيد للشهداء، تمجيد للشعر وسلطان الكلمة، احتفاء بنا نحن الإخوة العرب الذين عبرنا إلى فلسطين والدم يراق شلاّلا، وأرواح تزهق والعالم يتقن الفرجة. في اللحظة التي كنّا نفتتح فيها المهرجان افتتاحا رمزيا، استشهد ثلاثة من شباب فلسطين على مرمى حجر من القاعة. اختزلت الكلمات، وكانت القاعة مليئة بالناس، كنت على يقين من أنهم لم يأتوا لسماع الشعر والأدب والنقد، بل جاؤوا لأنهم اعتبروا دخولنا إلى فلسطين في هذه الظروف ذا طابع رمزي إشاريّ. كانوا يعتبروننا جزءا من الوجدان العربي. ولا يمكن للمرء في مثل هذه الحال إلا أن يشعر بأنه ضئيل عاجز عن تقديم أيّة مساعدة عمليّة.

ثمّة كآبة ما تخترق الجسد وتطبق على الروح. رغبة في البكاء، رغبة في النشيج تستبدّ بك حين ترى كم هو قاس قدر الفلسطينيّ في هذا الليل العربي الذي ما فتئ يزداد كثافة ودياجير، وكم هي مهيبة رسالته، ولا تقدر أن تفعل شيئا عمليّا.

نحن في السيّارات من جديد، وهي تمرق سريعة في الشوارع الخالية إلا من بعض عابري السبيل. على الجدران شعارات تدعو إلى المقاومة وتمجّد الشهادة والاستشهاد. هي ذي أريحا الصابرة، رائحة بارود وصوت سيّارات إسعاف. فجأة، فندق فخم يقف قبالة سلسلة الجبال الراسية مثل كائن خرافي ينتظر فرصة الانقضاض على الدنيا لسحقها مزقا وغبارا.

قرية أريحا السياحيّة:

فندق ومنتجع صحّي.
شارع بيسان قرب قصر هشام. أريحا فلسطين.

Jericho Resort
Village
Hotel & Spa
Near Hisham Palace, Bisan St, Jericho- Palestine

فلسطيني صاحب الفندق، العمال فلسطينيون، الترحاب فلسطينيّ مشوب ببعض من كرم الأنبياء. والمواجهات تجري هناك بعيدا عن الفندق. نحن في أحشاء الوحش إذن. والطريق إلى رام الله تعبر من تلك الجبال الراسية. أشدّ الأمكنة انخفاضا تحت سطح البحر. المكان رحم الدنيا. لعلّ الحياة بدأت هنا. حتما بدأت من هنا. كائنات بحريّة خطت باتجاه اليابسة حين شرعت المياه في الانحسار. وبدأ العنف تاريخه الدمويّ. كائنات بحريّة كانت تحيا في هذا المكان. هنا عاشت. هنا تناسلت. هنا نفقت.. المكان خرافة مدوّخة. أن تنام في فندق يقع على عمق 333 مترا تحت سطح البحر والبحر قحط وخلاء: هي ذي أريحا.. المكان الشبيه بخرافة قادمة من ليل الدهور.

هي ذي أريحا، بوّابة فلسطين. الاسم لم يمح من الأرض إذن. كما لن يمحى من ذاكرة أطفالنا. لقد تمّ محوه في الخرائط والعديد من المؤسّسات العربيّة. على يقين أنا من أن الذاكرة هبة من السماء. ليست الذاكرة مجرّد ملكة تحفظ الوقائع والوجوه. إنها إدراك مقاوم لسطوة الموت وسلطانه. والنسيان صنو الموت وسميّه وقناعه. علينا ألا ننسى أبدا. ولكم هو عظيم أن يمتلك المرء ذاكرة. وهذا هو الصراع في بعده الإشاريّ العظيم. يافطة الفندق. «كارت» الفندق نفسه فعل مقاومة. وللتسمية مفعولات التميمة والبلسم. أريحا، فلسطين، قصر هشام. كان الخليفة هشام يأتي إلى أريحا شتاء، وكانت للعرب وقتها كرامة.

يتامى نحن في هذا الزمان، وللحاكم العربيّ أن يزدهي بفعاله وصنائعه. للمكان ذاكرة تحميه. وصانعو

السلام يطالبوننا بالنسيان وحشيّا ضاريًا.. لن ننسى.. من أين للنسيان أن يجد طريقه إلينا، في هذا المكان، أرض فلسطين المجلّلة بالدم المراق والغضب، تبنى ذاكرة المستقبل، ذاكرة الأجيال، وستكون هذه الذاكرة مدوّنة إشهاد واعترافات. محمد الدرة سيظلّ يحدّث عن العنف وحشيّا، عن القتل نظاميّا، عن القهر ضاريا، عن ظلم حكّام من ذوي القربى خرّوا ساجدين للأعداء. إن محمد يشهد ويحرس ذاكرة الآتي، وللاسم دلالته الرمزيّة.

* * *

الثلاثاء، 3 تشرين الثاني صباحا. سدّوا المنافذ إلى رام الله. الطريق إلى القدس مغلقة هي الأخرى. عسكر ودبابات. «هناك طرق ومسالك ترابيّة سنسلكها. لا بدّ أن نغادر أريحا قبل المواجهات، يجب أن نسرع». الفلسطينيون، رفاقنا، كانوا حريصين على سلامتنا، وهكذا استحثّونا. يجب ألا نصاب بأي خدش في أجسادنا. يجب ألا يطالنا أي أذى أو أي مكروه. سنغادر أرض كنعان وأجسادنا سليمة تماما. لكن لا أحد سأل عن الروح.

روحي صارت دياجير وظلمات. حزن صامت عميق يداخل شغاف القلب. إحساس باللاجدوى. ماذا يمكن للمرء أن يفعل، كيف يمكن أن يكون عمليّا وهو لا يتقن غير الكلمات. حتى الكتابة في مثل هذه الحال خيانة ودنس، خزي وعار. كنت أدوّن جميع ما أرى. جميع التفاصيل التي اجتذبتني إليها دوّنتها خلسة. حملت معي من التفاصيل ما يكفي لتأليف كتاب. كيف يرتقي المرء إلى مستوى ما رأى، كيف يكتبه محاطا بهالته الأسطورية دون أن يقع في نقل الواقع أو وصفه وصفا إخباريّا مسطّحا يفقره ويلغي كثافته، كيف يكتب جانبه السحريّ الأسطوريّ المروّع. الحياة أقدس من النص، والفعل المقاوم أعظم من أن تحيط به الكلمات، لا سيّما إذا كان الفعل أسطوريّا رسوليا على النحو الذي نرى.

أريحا الصابرة!

سلاما.

سلاما

الفندق جاور قصر هشام، وأصرّ على أن يعرّف الجار والجيرة ويذكّر اليتامى من نسل هشام بأمجاد أريحا. وطوبى لنا!! طوبى للحزانى. طوبى لثعالب الأرض نائحة على ثعلب الصحراء الذي دنّس بأمر أمريكا اسم الفصيلة كلّها.

الطــريق إلى رام الله

الوجهة رام الله. والجبال تزداد عتوّا عندما نتوغّل في الطريق الملتوية التي تخترقها. ليس طريقا هذا الخيط الإسفلتي الذي يمتد بين ضلوع الجبال دوائر والتواءات، بل هو ثوب حيّة رقطاء نسيته هنا في

بدايات الزمان.
حتما تمّ تشييع شهداء يوم الأمس. بالزغاريد شيّعوهم. وبعد قليل، أمهات وإخوة وأقارب وأصدقاء سينخرطون في نوح مكتوم، نوح اختار أن يكون سرّيا نكاية بابنة صهيون الضالّة. ثمّة في هذا البكاء السرّي رسالة خفيّة إلى العرب المستسلمة تريهم كيف يلقى أحفاد الأنبياء حتفهم. وثمّة داخل هذا كلّه إصرار على تدجين الموت وقتل فجائيته وإلغاء طابعه المتوحّش الضّاري.

*　*　*

أربكت الحواس كلّها والروح أثقلت بالليل.
مرّة أخرى، صورة محمد الدرّة. أريحا! يا أريحا الصابرة! يا قصر هشام! يا صديقي الشرطي الفلسطيني الذي كان من قبل فدائيّا.. سلاما. لم أسألك في غمرة عبور الصراط حتى عن اسمك، فمعذرة، معذرة وسلاما.
الساعة التاسعة صباحا. الشمس ساحت في السماء ناشرة نورا أصفر ثقيلا. حالما تخطو خارج بهو فندق أريحا المتلقّت صوب قصر هشام، تتلقّفك الأرض طينيّة صفراء، كلس وملح وصفرة. ويبدو المشهد قياميّا تماما. لو صوّت في السماء بوق، لسلّم المرء بأن نهايات الدنيا قد حان حينها. شيء كالزفير المكتوم تحسّه في الهواء يصّاعد من الأرض التي خزّنت في ترابها الموات لهب شمس البارحة. وها هي الشمس ذاتها تعاود الظهور من جديد مقرّة العزم على الخطب العظيم ذاته: إحراق كبد العالم. ما رأيته البارحة بعد عبور الجسر– الصراط، لم يكن مجرّد وهم إذن. ها هي الشمس تطلع شاحبة، نورها أصفر معجون بالرماد. وها هي أرض أريحا وجلة مأهولة بالخطوب قادمة من ليل التاريخ. والجبال، الجبال ما زالت هنا. لست مطالبا بأن تنظر إليها، هي التي تأتيك، هي التي تداهمك وتقتحم جسدك ضخمة عاتية جرداء لا نسمة ولا حياة. خلسة تنظر إليها كأنك تسترق النظر إلى وحش مرعب تخشى أن تستفزّه فيرتدّ البصر كسيرا.

*　*　*

نصعد الحافلة «مرحبا.. نوّرتوا فلسطين.. هلاً! هلاً بالإخوة العرب.. الطرق مسدودة بالدبابات والعسكر.. سنأخذ طرقا ترابيّة.. أهلين! يا مرحبا!.. سنسلك الطرق، الطرق الترابيّة.. طرق وعرة قليلا.. بعد قليل ستبدأ المواجهات..». يرتفع صوت المحرّك وتضيع كلمات السائق فتصبح كالتمتمة أو الوشوشة «اليـ..هـود.. استشهد.. مستوطنون..».

نحن الآن على الطريق باتجاه رام الله. بدأنا نصعد من أشدّ الأمكنة انخفاضا تحت سطح البحر باتجاه الدنيا. من العالم السفلي نصعد. الكلّ صامت. إنها مهابة المشهد. كانت الجبال تقترب. ها هي تزداد قربا. هي ذي تزداد قسوة وشراسة. أريحا بدأت تبتعد. بقع خضراء وبعض مبان. الكازينو يتراءى هو الآخر. لقطة من شريط سينمائي مدوّخ، سيقف غودار مذهولا قدّام عبثيّة المشهد. أريحا صارت هناك. مذهلة

ومدهشة تجربة الصعود هذه، وأريحا هناك في الأسفل صابرة.

* * *

أريحـا!

يا أريحا الصابرة.. أحتاج قليلا من صبرك الربّاني، فالروح محض عذاب.. جسر على نهر.. كازينو في أرض موات. قصر ينوح في السرّ ليلا على أمجاد من سكنوه. والشمس تعاود الظهور. رجف يستبدّ بالأرض، وليت نور القمر لا يضيء. طوبى لنا!! لكن من أين سيجد العزاء طريقه إلى الحزانى.
ثمّة في تجربة الصعود هذه من أريحا إلى رام الله المتلقّتة صوب القدس، من العالم السفلي إلى الدنيا، شيء سحريّ يربك الحواس جميعها. قسوة الجبال، عظمتها، جدبها، عراؤها، هالة المهابة التي تجلّلها، كل هذا يجعلك تكاد تسلّم بأنك قفزت في العمى والكون لم يزل بعد سديما. بعد قليل، بعد برهة، قد تنحني آلهة ما، قد يأتي ملاك ما، قد يتجلّى كائن أثيري ما ويقتطع من طين الجبال قسطا، حفنة أو حفنتين، ويبدأ التكوين.
من هنا، من جبال أريحا يسهل الصعود إلى السماء. يكفي أن نحدّق قليلا وسندرك أن السماء تتكئ فعلا على هذه الجبال العارية من كلّ نسمة أو عشبة أو حياة. وليس غريبا أن يكون المعراج هنا من أرض فلسطين. ليس غريبا أن تنفتح السماء في وجه المسيح ويأتي روح الله نازلا عليه مثل حمامة وتدوي السماء بالصوت قائلا: «هذا ابني الحبيب الذي به سررت». المشهد قاس ومروّع، فظاظة رقيقة، هشاشة صلبة، غلظة حانية، جبال صلبة مثل لعنة أبديّة، هشّة كجبال من الغيم الضارب إلى الصفرة، طين تجمّد: هذه هي جبال أريحا المتلقّتة صوب رام الله والقدس عروس المدائن، ثكلى العواصم.

* * *

الحافلة مكدودة تصعد من أشدّ الأماكن انخفاضا إلى قمم الجبال، الطريق تمتدّ ثـنيّة بين ضلوع الأرض.
ثمّة شيء خرافي، ثمّة شيء إشاريّ مدهش في تجربة الصعود هذه، الجبال يمينا ويسارا مهيبة مجلّلة بالصمت والقحط، مسخوطة تبدو ومتحرّكة. يكفي أن يستسلم المرء قليلا لحواسه ويتملّى ما يراه دون أن يعقلن المشهد، وسيشعر أنه في حضرة كائن أسطوري مروّع، كائن خرافي يتحرّك في ثقة وتؤدة وثبات باتّجاه كون أزمع على أن يهلكه. غير أن هذا الشعور سرعان ما يتراجع ويتحوّل الوحش المخيف إلى كائن خرافي مسكون بأسى لا يطفأ.
الأبديّة هنا في هذا المكان متوارية خلف غلالة شفّافة، غلالة في منتهى الرقّة، لو خدشنا الهواء الجاف قليلا، سنجد أنفسنا هناك في الماوراء، حيث نهر الأبديّة ودموع بني البشر أجمعين. جبل التجربة أحد هذه الجبال الواقفة في المهبّ ما بين المادي الصلب والأثيري الشفاف. على اليسار قليلا، بناية بيضاء تبدو كأنها تتشبّث بالجبل، بالكاد تتماسك ولا تسقط. إنه دير قرنطل المحتمي بجبل التجربة. دير صغير،

دير معلّق يجاهد الأفول متلقّتا إلى الهاوية. لو هبّت نسمة من هواء لتداعى، ولكان سقوطه عظيما.

الأبديّة متوارية خلف غلالة رقيقة حتى لتكاد تتراءى من خلال المكان من فجوات في الهواء. لا بدّ أن يكون يسوع المسيح قد عاش هذه اللحظة. لا بدّ أن يكون هذا المكان موطنا للأنبياء ومرتعا لنجوم السماء.
هي ذي جبال أريحا إذن: مكان محمّل بالإشارات، غابة من رموز وإيماءات. لا يمكن للمرء أن يعبر من هناك ولا يرى بعضا من تلك الإشارات والإيماءات التي تملأ المكان بالقسوة والمهابة والهشاشة. فالمشهد يربك الجسد ويدوّخ الحواس.
وحيدا خاض يسوع المسيح التجربة في هذا المكان. ظلاله ما زالت في المكان مثل رفّ جناح، جناح خطاف شهد فعال ابنة صهيون الضالّة فاتّشح بالسواد. بعد قليل، سيدقّ اليهود لحمه بالمسامير صدئة، سيصعد إلى الجلجلة. وبعد قليل يوم الأربعاء 4 تشرين الأول سنة 2000 حين نكون في فندق BEST EASTERN برام الله، سيدخل شابّ فلسطيني فزعا ويخبرنا أن المستوطنين أمسكوا فلسطينيا ودقّوا المسامير ذاتها في جسده.
هكذا يتّخذ الحلم طابع الكابوس ويلتحف بجميع سماته. يكفي أن يحدّق المرء قليلا في الجبال الجرداء، في صفرتها الشاحبة المعجونة بالرماد، في الكيفيّة التي تتماسّ بها ويتكئ البعض منها على البعض الآخر فيما هو يواصله، حتى يخيّل إليه أنها جبال متحرّكة، جبال تزحف باتجاه فلسطين، تريد سحقها نهائيا ثم تطحن الكون بأسره. من هنا سينتهي العالم.
وأحفادنا، نحن العرب المطاردين والمقهورين الصابرين، سيحضرون تلك اللحظة الجلل. لن تهنأ ابنة صهيون. ولن تخلد إلى الراحة أمريكا. فالدم صارخ في البرّية.
صرنا في الأعالي، عبرنا الهاوية. حين تلتفت باتّجاه الجبال وقد صارت بعيدة، تراها جبالا متحرّكة تحثّ الخطو وراءنا وهديرها المكتوم يطبّق الآفاق. يتغيّر لون الأرض. يصير التراب أحمر ضاربا إلى السواد قليلا. شجيرات زيتون هنا. شجيرات هناك. ولا شيء يشدّ العين على الطريق المؤدّية إلى رام الله التي تتفرّع عنها الطريق المؤدّية إلى القدس وبيت لحم وبيسان غير الحجارة. حجارة وصخور مرمية على الأرض مثل قطعان من الأغنام والماعز وصغار أبقار خرجت للتوّ من شكيمتها. أحجار من كل الأحجام. حجارة تكاد تغطّي أديم الأرض كلّه. لكأن الأرض زلزلت زلزالها. لكأن هذه الأحجار هي أثقال الأرض مقذوفة في العراء.

هي ذي أرض رام الله. على قمم الجبال المجاورة يلمع قرميد المستوطنات. على كلّ الجبال المحيطة بالقدس مستعمرات بنيت بالطول لا بالعرض، فصارت عبارة عن سور أفعواني ضخم يحيط بالقدس والقرى المجاورة لها. الكنعانيون القدامى كانوا يقيمون على رؤوس الجبال ويتّخذون منها دروعا وأحصنة، وها هي ابنة صهيون تسرق منهم طريقتهم في بناء المدائن والقرى. اتفاقيات أوسلو التي ترقد الآن في الرفوف كسيرة النفس مخذولة ككل أحلام العرب، نصّت على ضرورة تفكيك هذه المستوطنات. ومنذ تلك اللحظة التي صافحت فيها الضحيّة قاتلها، والمستوطنات تزداد اتساعا وتحكم الطوق حول القرى الفلسطينية، متقدّمة باتّجاه القدس، تريد خنقها.

* * *

هي ذي فلسطين:

لا عسل ولا لبان ولا مرّ. وإنما هي حجارة منثورة وصخور تطلّ برؤوسها من الأرض لتشهد على قسوة المكان. يقال إن شمال فلسطين يشبه جنات من تحتها تجري الأنهار. لن نذهب إليها وتلك حكمة صهيون. من أين جاءت أرض رام الله بكلّ هذه الصخور، من أين أتت بكلّ هذه الحجارة. لكأننا في كوكب آخر. لكأن الأرض تحثّ بنيها على استخدام الحجر سلاحا. حين ترى هذا الكمّ الهائل من الأحجار منثورا على الأرض، يداخلك الشكّ في أن انتفاضة الأقصى وانتفاضة يوم الأرض وكلّ الانتفاضات التي دوّخ بها الشعب الفلسطيني العالم، ليست فعلا اختياريا أتاه شعب محاصر بالليل، بل هي تلبية لنداءات الأرض. تكاد تسلّم بأن الأرض تطرح كنوزها أحجارا وصخورا والفلسطينيّ يلبّي النداء. فالأرض هي التي ترجم ابنة صهيون الحاقدة بالحجارة. ليس الفلسطيني سوى وسيلة في معركة الأرض ضدّ غزاتها، وسيلة اتخذتها الأرض لترجم بأحجارها بنت صهيون الحاقدة. هذه الأرض المزروعة صخورا وحجارة، هذه الأرض المسخوطة هي نصيب الفلسطينيين من كلّ فلسطين. ولنا أن نفرح. لنا أن نهلّل. وطوبى للحزانى لأنهم عند الله يتعزّون.

* * *

شارات مرور إرشاديّة: أورشليم القدس بيسان– بيت شآن– رام الله. عسكر ودبّابات. يتقدّم الجند. يقومون بإشارات. فوهات رشاشاتهم موجّهة نحو الحافلة. يفهم السائق أن العبور ممنوع. يتراجع قليلا ويعود ثم ينهال بالسباب والشتائم: «أوغاد.. سفلة.. سنسلك طريقا ترابيّة.. وحياة المصحف راح نمرق رغما عن أبيكم.. هذا طريق القدس.. يلوّح في الهواء بقبضته.. رأيتم كيف نحيا.. حياتنا معهم هيك.. كل يوم هيك..». تدخل الحافلة مسلكا ترابيا ملتويا وتشرع في الصعود، والسائق ما زال يلعن أم اليهود وخالاتهم من الرضاعة والأمم المتحدة.

هي ذي رام الله:

مجموعة هضاب ملتقّة حول حشد من المنخفضات. أشجار وطرقات وبيوت من الصخر. قبل اتفاقات أوسلو، كان البناء ممنوعا. ترميم البيوت ممنوع هو الآخر. أما بعد الاتفاق، فقد صار بإمكان الفلسطيني في رام الله أن يبتني تحت الشمس سقفا. من تَداعى بيتُـه للسقوط، بإمكانه أن يرمّمه ولا خوف عليه

من الجند وباراك وشارون وإلوهيم ربّ الجنود آكلات لحم بني البشر. مجّد اسمك أوسلو!! وللحاكم العربيّ أن يزدهي بفعاله وصنائعه. له أن يسير مخفورا بالدم وخسران العرب أجمعين. أمريكا.. يا قاتلة نسل الأنبياء!! هيكل وهمي ويهود مثل قردة مخبولة يهزّون الرؤوس فتضحك أمريكا.
وصلنا إلى منطقة البيرة. بلدة متكئة على رام الله. بلدة تقع على خطّ النار. درع واق لرام الله. بيوت من طوب رماديّ. بيوت وبنايات كتلك التي تراها في مخيّمات الفلسطينيين عادة، ولست تدري، هل هي كئيبة أم مقفلة بالوجع والأسرار. رفع السائق علم فلسطين، وعلّقه، شرع العلم يرفرف حفيف أجنحة ووشوشات. في مدخل البيرة سيارة محروقة. «هاي سيارة أحد المستوطنين.. الشباب أحرقوها أمس.. جاء ليطلق عليهم نارا»، قال السائق مبتسما. حجارة مرميّة هنا وهناك على الطريق الإسفلتي المغبرّ. أطفال لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم يجمّعون الحجارة بالقرب من السيارة المتفحّمة.
ثمانية أطفال، تسعة، لا، ها هو طفل آخر يأتي راكضا وهو يدحرج إطار عجلة سيّارة. يضع الإطار قرب كومة الأحجار. ويهمس لرفاقه شيئا فينخرطون في ضحك طفولي عابث. أحد الأطفال استلقى على ظهره من شدّة الضحك وبدأ يفحص الأرض بقدميه. في الزاوية، قدّام بيت متداع بابه مفتوح قليلا، هناك بنيّة صغيرة على عتبة الباب تلبس مريلة صفراء وقفت تراقبهم. تفرك عينيها بيد. وبالأخرى تسوّي جديلتها. يطفح القلب بأسى مهلك صامت مبيد. لو أن بإمكان المرء أن يوسّع بين جدران الروح مكانا لهذه البنيّة. لن أعرف اسمها أبدا. لن أراها ثانية.. هذه حكمة أبناء صهيون.. وهؤلاء أحفاد صلاح الدين نسل الأنبياء.. والمقدّس فيهم قد تجلّى.
الروح صارت خرابا.. محمد الدرّة من جديد والدمع الحبيس يحزّ شغاف القلب.. بالكاد ترى البيوت المتراصّة على جانبي الطريق.. لكأنها ترقص في بحيرات من الدمع.. الدمع حبيس والروح خرقة وصدأ. وطوبى للحاكم العربي جلّادا وسفّاحا وأشياء أخرى.

*   *   *

الحافلة تعبر.. أفهمنا السائق أنهم يعدّون لمواجهات ما بعد الظهر. دخلنا رام الله وشوارعها مقفرة إلا من بعض العابرين.. الدكاكين مغلقة والإضراب عامّ. على الجدران شعارات تمجّد الشهداء، ملصقات نعي، ملصقات شباب خطفهم الموت فصاروا شهداء. شباب في زهرة العمر ينظرون إلينا مبتسمين. صور بالألوان لشباب مضوا في الشوط إلى أقصاه. فجأة فندق BEST EASTERN برام الله. شباب مسلّحون من فرقة الـ17 الشهيرة أمام الفندق يراقبون السيارات متحفّزين لأي طارئ. هي ذي رام الله.. وغدا سيكون نهار آخر.. سنمرق من وادي النار إلى بيت جالا، ومن بيت جالا إلى بيت لحم، إلى كنيسة المهد. سنزور بيوت العزاء في بيتونيا والبيرة ومخيّم الأمعري. وللحكاية أن تواصل نسج فصولها.

درب الآلام

يوم الثلاثاء، 3 تشرين الأول 2000، الساعة العاشرة صباحا، حين وصلنا قدّام مشفى رام الله. الشعب الفلسطينيّ كان هناك يذرع الساحة في اتجاه باب الخروج مجلّلا بالغضب. كان الموكب مهيبا. فلسطينيون من كلّ الأعمار. أطفال وشيوخ وشباب يتقدّمون واجمين. تنحّينا جانبا لأننا كنّا نتقدّم في الاتجاه المعاكس نريد الدخول إلى المشفى لعيادة الجرحى. الموكب مهيب ومروّع. هو ذا العلم الفلسطيني وقد غدا كفنا. على الأكتاف شاب في ربيع العمر مسجّى في الأسود والأخضر والأبيض والأحمر. هو ذا شهيد ثان. الكفن ذاته. الوجه مكشوف. والفتى الثاني، الفتى الذي خطفه الموت يبدو نائما مثل الفتى الأول تماما. الفلسطينيون يكفّنون شهداءهم هكذا. يتركون الوجه مكشوفا يواجه السماء. كأنهم يولّونه للسماوات كي تراه، كي تحفظه، كي لا تنساه أبدا بعد أن ضاقت الأرض به. الموكب مهيب مروّع. شيء في قاع الروح يتفتّت. دمع حبيس يحزّ شغاف القلب. يرقص المشفى كلّه في بحيرات من الدمع الحبيس في عينيك. ستصوّر الجنازة وستتناقلها الفضائيات. هو ذا الموت «فرجويا» متوحّشا قاسيا فظّا بدائيا ساديّا همجيّا عاتيا ضاريا فاجعا. هو ذا القتل على مرأى من الدنيا والعرب. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا باندهاش. إنها تأكل بنيها.

في أروقة المشفى ومدارجه، نساء يدارين الوجع.. أطفال جاؤوا لعيادة جرحاهم.. رجال.. شباب.. المشفى مليء بالناس. كأن الشعب الفلسطيني كلّه هنا يعود جرحاه. فيما الشعب الفلسطيني الآخر ذهب يشيّع الشهداء المقتّلين. شهداء قتلوا بالرصاص. ثم قتلوا بالصمت العربي. ثم قتلوا بلامبالاة الدنيا قاطبة. أنا على يقين من أن الانتماء إلى الجنس البشريّ جناية لن تغفرها السماوات. ندخل إلى غرف الجرحى.. المشهد يخلع القلوب.. الطبيب الجرّاح فوزي سلامة رافقنا من غرفة إلى غرفة. في كلّ غرفة أسرّة. وعلى الأسرّة يرقد الشعب الفلسطينيّ جريحا. رام الله كلّها هنا. أطفال جرحى.. كهول جرحى.. شباب.. المشهد يخلع القلوب.. قوارير الأوكسجين.. خراطيم في الأفواه.. خراطيم تنتهي بإبر حادّة مغروزة في عروق الأذرع.. بعض الجرحى في حالة موت سريري.. الطبيب الجرّاح فوزي سلامة شخص نشط متفان في خدمة ناسه وشعبه. لقد أنقذ العديد من الجرحى من هلاك محقّق. صارع الموت مرارا وغلبه أحيانا. كان يحدّثنا بفرح طفوليّ مشوب ببعض من حزن الأنبياء عن كيفيّات نجاحه في طرد الموت وإعلاء الحياة. ارتعش صوته حين تحدّث عن تلك اللحظات التي غلبه فيها الموت وافتكّ منه شابّا أو طفلا أو قطعة من بدن.

مكتب الدكتور موسى أبو حميد مدير المستشفيات.. ندخل.. يرحّب بنا نحن الإخوة العرب. يحدّثنا عن عدد الإصابات. «إنهم يريدون ترويعنا فيقتنصون الأطفال. لقد بلغت نسبة المصابين من الأطفال 52%، ونسبة المصابين من الذين أعمارهم أقلّ من الثلاثين سنة 98%». هكذا حدّثنا متوتّرا، تدخل ممرّضة شابّة حسناء. خفر وجمال تجلّله الأحزان. تعتذر وتهمس في أذن المدير شيئا مّا. «سنخبرهم في ما بعد، هاي مصيبة، لا تخبريهم الآن، إنه وحيد والديه». هكذا قال لها، فخرجت مجلّلة بالوجع ذاته مخفورة بالبهاء ذاته. أرانا ما يسمّى الرصاص المطّاطي. رصاص حقيقي مغلّف بقشرة مطّاطيّة لا يتعدى

سمكها ميلليمترا واحدا. على كلّ رصاصة، وضعت ورقة تحمل اسم المصاب الذي طاله الغدر.
حين غادرنا المشفى، كانت الشمس في الأعالي قرصا أحمق عاجزا حتى عن القشعريرة والرّجف، والأفول قدّام كلّ هذا الويل. لو كان في هذا القرص الناريّ الأبله بعض من حنان، لانهار على الأرض وسحقها.
متى ينتهي العالم؟ متى الدنيا تنتهي؟ الحياة فسدت.
وهذا الكوكب الأرضي يمتلئ بالشرور والدياجير ويهوه ربّ الجنود يكشّر عن نابه الأزرق. يجب ألا تنتهي الحياة إكراما للذين يتسابقون إلى الموت إعلاء للحياة. أنا على يقين من أن أمريكا ستظلّ تدحرج العالم باتجاه الهاوية حيث لا شيء غير الموت وصرير الأسنان. فالصهاينة، ومن ورائهم أمريكا وكلّ قوى الخراب في هذا الكوكب الأرضي الكئيب، يريدون أن يقنعوا الناس بأن الفلسطينيين هم الذين يحملون أجسادهم ويضربون بها الرصاص الصهيوني النائم في الرشاشات. وهم الذين يستفزّون الموت الغافي في الصواريخ والدبابات وقلب ابنة صهيون. وليس الجند المدجّجون بالضغينة والحقد هم الذين يقتلون الأبرياء قدّام العالم. شريك في الجريمة هذا العالم الذي يكتفي بالتفرّج على الدم العربيّ مراقا. ثمّة حرص على الإقناع بأن الفلسطيني يعاني من عقدة الحياة والجندي الإسرائيلي يخلّصه من تلك العقدة عندما يطلق عليه النار ويرديه قتيلا، وهذا هو منطق الإنسانيّة في مطلع الألفيّة الثالثة.

اتفاقيات تذروها الرياح

قبل رحيله إلى باريس بحوالي ثلاث ساعات، وجّه إلينا الدعوة، وها نحن في الطريق إليه.. «الختيار» يسميّه الفلسطينيون تحبّبا. وحين يغضبون أو يعتبون عليه، يصبح اسمه ياسر عرفات أو عرفات فقط. لقب ولا اسم. ينادونه أيضا الأخ أبو عمار. ويحلو للبعض أن ينعته بالقائد الرمز أو السيّد الرئيس، بحسب السياق والمقام. وبعد ما سمّي من قبيل السخرية السوداء قمّة كامب ديفيد الثانية، جاب «الختيار» الدنيا بلدا، بلدا.. ذهب عند العرب الذين ما زالوا يسمّون أنفسهم الأشقاء (وحدث أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله في شهر أيلول، ثم وارى رفاته في جرش، ثم جرجر الرفات وواراه في تل الزعتر، ثم امتلأ قلبه بالضغينة فمزّقه إربا ووزّعها بالتساوي على العواصم العربيّة وخلد إلى الأمن والراحة. وكان أن قال الربّ لقابيل: أين أخوك؟ فقال: لا أعلم، أحارسٌ أنا لأخي).. زار «الختيار» ملّة النصرانيين والهندوس، وملّة يقال لها ملّة المسلمين. دخل بلاد السند والهند والصين، ووصل ذات مساء حتى أقاصي أفريقيا السوداء؛ حتى نلسون مانديلا الذي خبر في سجنه الويلات كلّها نصحه بالتريّث. فقفل راجعا إلى ناسه في غزّة والضفّة.
بناية متواضعة، خمسة طوابق.. مدخل كبير قدّامه بعض الشباب يحملون رشّاشات ويبتسمون مرحّبين. باب حديدي يفتح.. يدور الباب على صائره محدثا صوتا أصمّ.. تمرق السيارات.. الطابق الرابع.. ندخل قاعة صغيرة.. في الوسط ثمّة مائدة في منتهى الصّغر، عليها منفضة سجائر.
استقبلنا مبتهجا.. جلس في وسطنا على تلك المائدة نفسها. وبنبرته المتهدّجة دائما، حرص على أن

يشكر الجميع ويشكر الأمة العربية. تفهم من كلامه أنه مبتهج بالانتفاضة لاعتقاده أنها ستُسقط من جديد أقنعة ابنة صهيون الضالّة، فينكشف الجحيم المتكتّم على نفسه في صميم فكرة دولة بني إسرَائيل، فالفكرة ذاتها مضرّجة بالويلات والشرور والدم المراق. كان يحدّثنا مبتهجا وهو على يقين من أن صورة محمّد الدرّة وحدها كفيلة بأن توقظ في الدنيا بقايا من إنسانيّة.. لكنه سيمضي إلى باريس.. ومن باريس يشدّ الرحال إلى شرم الشيخ.. من شرم الشيخ سيعاود الرحيل مكدودا إلى قمّة جمعت ما تبقّى من العرب العاربة وأختها العرب المستسلمة. ومن هناك، سيعود منكسر النفس إلى ناسه وبلده. فالعالم بأسره، قرّر أن يكتفي بالتفرّج على الدم الفلسطيني مراقا وعلى الجنائز تخبّ كلّ يوم في مشهد قيامي مروّع باتجاه المقابر. وطوبى للحاكم العربي سفّاحا وأمّيا وأشياء أخرى. ومجّدت أمّة العرب. فهذا زمن الموظّفين وأمريكا. جاء جيل الموظّفين ليسود ويحكم ويمضي بالعربة حثيثا باتجاه الهاوية. «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت». وطوبى للحزانى.. مجّد اسمك أوسلو.. مجّد اسمك أمريكا يا قاتلة نسل الأنبياء.

في بناية مجاورة، استقبلنا أبو مازن.. تحدّث طويلا عن المفاوضات والمواقف الصلبة التي أبداها المفاوض الفلسطيني.. لم أفهم إلى الآن ماذا قصد الأخ أبو مازن بقوله: «إن الدول تبنى بالمحاكم، ونحن الآن بصدد إعداد قانون وتأسيس محكمة فلسطينيّة». كان ذهولي عظيما لا سيّما أنني لا أفقه في تأسيس الدول شيئا يذكر. أنا المنتمي إلى هذا الجيل المكلّلة أيامه جميعها بالسواد وطعم النحيب، أشهد أنني لم أفهم.. وأشهد أنني أعرف أن المفاوض الإسرائيلي سيظلّ يفاوض مستحضرا مكر ابنة صهيون التي دوّخت السماء من أجل بقرة صفراء فاقع لونها.. فما بالنا إذا كانت المسألة تخصّ الأرض والربح والغلبة والقهر. المفاوض الصهيوني يدرك تماما أن المسائل التي يتفاوض في شأنها مع السلطة العائدة كثيرة متنوّعة. فإذا استغرقت كلّ نقطة عشرين سنة من التفاوض، سيعود المسيح في نهايات الزمان وسيجد المفاوضات ما زالت في بداياتها، والمستوطنات قد وصلت حتى بلاد شنقيط موريتانيا العظمى، وسحقت جزيرة العرب نفسها.. مجّد اسمك أوسلو.. وطوبى لأمريكا! طوبى للجريمة.. طوبى للعواصم العربيّة ثكلى مكلّلة بعار لن يطفأ الدهرَ كلَّه.

* * *

اتفاقات تذروها الرياح زبدا وطواحين ريح. وفي رفح شباب يواجهون العسكر بالحجارة ويقتلون.. في الناصرة والجليل وفي بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ورام الله والبيرة، المشهد ذاته في قلقيلية وطولكرم.. حجر يواجه دبّابات ومروحيات، في غزّة وجنين ونابلس. غضب وحجارة في كلّ فلسطين.. دبّابات وحجارة.. عساكر.. جنائز تسير خببا باتّجاه المدافن.. نسمة من جنوب لبنان المتلقت باتجاه شمالك فلسطين.. نسمتان ونرجس:

الإمام علي بن أبي طالب لم يدفن.. على فرس أبيض ما زال يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. كان الإمام فارسا بطلا صنديدا دوّخ جند الأعداء.. سيفه كان بتّارا.. في ساحات الوغى، كان الإمام علي يضرب الفارس فيشطره هو وفرسه شطرين ويتوغّل السيف في الأرض يكاد يبلغ منها الرحم والأحشاء. كانت

الأرض تألم وتتوجّع ويصدر عنها صوت كزفير الجحيم وهي تتوعّد الإمام قائلة: «يأتيك يومك يا عليّ»..
الأرض كانت قد أضمرت شرّا عظيما، وأقرّت العزم على أن تثأر لنفسها منه يوم يموت ويقبر في ترابها.
قتل الإمام وهو يصلّي صلاة العشاء.. قتل غيلة.. فكان أن بكاه أهله والمسلمون، والدنيا أصابها رجف،
وسمع في الآفاق كلّها نوح ونحيب.
وكي لا يتمّ ما به توعّدت الأرض الإمام، كي يدرأ الشرّ الذي أضمرته، كفّنوه ووضعوه على سرج فرسه،
فانطلق الفرس الأبيض يسابق الريح خفيفا كفرس من أثير معجون بالنور، الفرس سيظلّ يجوب الأرض
حتى نهايات الزمان، والإمام لن يترجّل إلا يوم القيامة، فيكون عدل؛ وتبدأ الحياة الأبدية؛ والموت يموت
ذبحا. كانت الزهور والورود كلّها قد خلقت في الأيّام الستّة الأولى التي ابتدأ فيها الخلق.. النرجس لم
يكن من بينها.. خلق النرجس بعد مقتل الإمام.. أزهار النرجس صارت تنبت في مواضع حوافر فرس
الإمام الشهيد.. كلّ نرجس الدنيا هو البشارة، وهو الأمارة على أن الفرس ما زال يجوب الأرض ملتحفا
بالغياب، يتراءى وبالكاد يرى.

هكذا حدّثوني عندما كنت طفلا، وأنا رأيته، رأيت الفرس يمرق في الأيام الشتائيّة الماطرة حين السحب
تترجّل على الأرض ضبابا، كثيرا ما كنت أراه. هذه حيل المتخيّل الجماعي في تمجيد الحقّ ومن ناصروا
العدل. ولكني رأيته في طفولتي يمرق بين الهضاب والجبال، ويبدو أنه كان هناك في جنوب لبنان يوم
ابنة صهيون الضالّة هربت لا تلوي على شيء.

بيـــوت العـــــزاء

وصلنا إلى البيرة بعد الظهر عبر طريق ترابيّة وعرة، حفر ومطبّات، سيّارات وشاحنات وجرّارات أرغمت
كلّها على أن تتسلّل إلى حاجاتها ووجهاتها عبر هذه المسالك الترابيّة. وهذا جزء من حكمة ابنة صهيون
وعدالتها. خيمة كبيرة سوّيت على عجل.. أعمدة خشبيّة كسيت بالأبيض والأحمر والأسود، خيمة
مستطيلة تتوسّط البيوت تحتها ناس كثيرون.
هو ذا الشعب الفلسطيني يتقبّل التعازي.. أب مثقل بالهمّ يداري الوجع ويصافحنا محتفيا بالإخوة
العرب.. أب فقد طفله البارحة وجلس اليوم هنا يتقبل التعازي. «شرف لي أنني قدّمت ابني فداء لفلسطين
ولكرامة الأمّة العربيّة». هكذا ظلّ يردّد وهو يصافحنا ويتقبّل تعازينا.. عيناه زائغتان.. على ملامحه
مسحة من ذهول.. وتلك ضراوة الموت.. ذاك طابعه الكاسر المتوحّش.. الأب لم يصدّق بعد أنه لن يرى
طفله ثانية أبدا.. لم أرفع رأسي كي أرى الملصق.. لم أجرؤ على النظر إلى صورة الشهيد.
هنيهة، برهة، رعشة في المفاصل وتستجمع بقيا من صبر. ترفع عينيك إلى الملصق. طفل عمره 13 سنة،
صورة بالألوان والطفل يبتسم، ألوان علم فلسطين، لم ترتجف يد قاتله. تقرأ في أسفل الصورة الشهيد
البطل محمد نبيل علي حامد. تدوّن الاسم خلسة كي لا تخدش مهابة الموقف. الذّاكرة ازدحمت بالتفاصيل

والويل، وقد أنسى الاسم، لا سيّما أن أغلب الأطفال الذين سقطوا يحملون اسم محمد.. دوّنته خلسة.. قتل الطفل ولم ترجف يد قاتله. القنّاص الذي أرداه قتيلا برصاصة في الرأس لا بدّ أنه يحتفل الآن بأمجاده وبطولاته. نغادر المكان في صمت.
نحثّ الخطو كأننا نبتعد عن مكان الجريمة، كأننا شركاء فيها، كأننا مورّطون، يكفي أن تكون هنا؛ يكفي أن تعيش مهابة الموقف وترى فظاعة الفقد في عيني الأب الثاكل؛ يكفي أن ترى الهالة التي تحيط بعيني الطفل القتيل الذي ظلّ يرقبنا من الملصق مبتسما؛ يكفي أن تتخيّل روحه وهي ترفض أن تأخذ طريقها إلى مملكة الموت لأن الصبيّ لم يستكمل بعد ألعابه وضحكاته وشيطنته على مقاعد الدرس –يكفي أن تأتي وترى– حتى تشعر أنك مورّط في هذه الجريمة.
كانت الشمس قد مالت إلى الغرب قليلا وشرعت ترسل خيوطا صفراء فاقعا لونها، حين وصلنا إلى بيت على منحدر في بيتونيا، فلسطينيون هنا أيضا، الشعب الفلسطيني جالس على كراسي يتقبّل العزاء، الأب في الوسط مجلّل بحزن لا يمكن أن يطفأ.. نقدّم التعازي.. ثم نجلس.. الكراسي بالكاد تتماسك فوق الأرض.. لافتة كبيرة مثبّتة على عمودين خشبيين كتب عليها: حركة فتح تنعى بكل فخر واعتزاز شهيدها البطل محمود إبراهيم العمواسي. شاب بيده فناجين وإبريق يقدّم لنا القهوة مطيّبة بالهال.
في مخيّم اليرموك بدمشق، تعلّمت من الأصدقاء الفلسطينيين أن من لا يرغب في الاستزادة من هذه القهوة المرّة، يجب أن يمسك الفنجان بإصبعين، السبابة والإبهام، ويحرّكه يمنة ويسرة فيفهم الساقي المضيّف أنك أخذت كفايتك. وإن لم تفعل، فإنه سيظلّ يملأ فنجانك كلّما انتهيت من احتسائه. فيما كنا نغادر المكان، وصل شباب من قوة الـ17 ليؤدّوا واجب العزاء، فالشهيد محمود العمواسي رفيقهم في السلاح، عمره 23 سنة، وقد استشهد الليلة الماضية الساعة الواحدة والنصف.
عندما صعدنا الحافلة، بدأ السائق يناور كي يديرها، فكادت تهوي في المنحدر. لو فعلت لكان سقوطها عظيما، ولابتسم يهوه في الأعالي نكاية وشماتة بالإخوة العرب الذين قدموا إلى أرض كنعان فيما أحفاد الكنعانيين والنبيّين من الفلسطينيين يتسابقون إلى الموت إعلاء للحياة وتمجيدا للحياة.

* * *

شعاع، شعاعان، قرص أصفر في غاية البلاهة يختفي يسيرا يسيرا وراء الهضاب. الشمس غابت تقريبا حين وصلنا إلى مخيّم الأمعري المأهول بالرفض والإصرار. على الجدران شعارات تمجّد حركة فتح.. شعارات وقّعها أنصار الديمقراطيّة والشعبيّة والجهاد وحماس تذكّر بالكفاح المسلّح طريقا إلى فلسطين. شعارات تمجّد الشهادة والشهداء وتحقّر إيهود باراك مجرما وشارون جزّارا وتدعو إلى تحرير كلّ فلسطين.
شعارات تندّد باتفاقيات أوسلو وبالسلطة العائدة للتوّ من تيه دام دهرا في بلاد تسمّى المشرق العربي والمغرب العربي.. شعارات تندّد بالأنظمة العربيّة المتخاذلة.. شعارات أخرى تتوعّد بالويل والانتقام كلّ من تسوّل له نفسه أن يروّج المخدّرات.

بعد أن ترجّلنا من الحافلة في مدخل هذا المخيّم المليء بالحياة صاخبة هدّارة مفتوحة على كل الاحتمالات، وصلنا إلى مركز شباب الأمعري.. ناد رياضي واجتماعي وثقافي للمخيّم. داخل ملعب كرة سلّة فسيح وواسع جدّا، حتى لكأنه على استعداد في كلّ لحظة للتحوّل إلى ملعب كرة قدم، وضعت الكراسي تحت الجدران المحيطة بالملعب.. وعلى الكراسي جلس الشعب الفلسطيني واجما.

هي ذي اللافتة المحتفية بالشهيد.. هو ذا الملصق وقد ذيّل بالعبارة ذاتها، بالتميمة ذاتها: مخيّم الأمعري ينعى الشهيد البطل عماد عبد الرحمن توفيق العناني. عائلة الشهيد، الأب والإخوة اختاروا لهم مكانا في مدخل الملعب.. تعاز.. دمع حبيس.. من مكبّر صوت يأتي القرآن مرتّلا.

آيات تذكّر بأن الذين قتلوا أحياء يرزقون.. شابّ ملتح وسيم أوقف آلة التسجيل ورحّب بنا في لغة عربيّة أنيقة موقّعة كالنشيد. ندّد بالصمت العربي والتواطؤ العالمي.. وسّع المسافة الفاصلة بين الأنظمة العربيّة وشعوبها.. «الشعب العربي من المحيط إلى الخليج معنا.. لسنا وحدنا.. الشارع العربي معنا.. نحن نعلم هذا ونحفظ الأمانة.. لسنا وحدنا.. لسنا وحــ..ـدنا». هكذا اختتم كلمته.. عاد صوت المقرئ. بعد قليل سيتفرّق الجمع وستخلو عائلة الشهيد إلى الوجع ربّانيا.

حين غادرنا مركز شباب الأمعري، كان سيف الرحبي يمشي مذهولا ويهمس: «العدم الضاري.. العدم الضاري».. أنا سمعته ورأيته يجرّ الخطى مذهولا. من خلل الغيم المتناثر، طلع قمر أصفر باهت الصفرة وبدأ يتسلّق السماء متعبا مكدودا.

الفلسطينيون أحفاد الكنعانيين والنبييّن يعلمون علم اليقين أن يهوه مقرّ العزم على إبادة الحياة وعلى إفسادها وتحويلها إلى جحيم. وهم على يقين، أيضا، بأن يهوه يستدرج الحياة إلى الهاوية. وها هم يتسابقون إلى الموت لأنهم مؤتمنون على استمرار الحياة. من هنا تستمدّ المواجهة في ديارهم عنفها المدوّخ الضاري.

فلسطين يا بيت العرب.. ذات ربيع رحل أوكتافيو باث.. كتب شعرا ثم رحل.. لست أنا القائل بل هذا الشاعر الذي اسمه أوكتافيو باث هو القائل: «يجب علينا ألا نترك التماسيح الكبيرة تصنع تاريخ البشريّة.. إنني لا أستبعد الانهيار الأمريكي، فالتاريخ لا يمكن أن يتحمّل إلى ما لا نهاية هذا الالتحام الهائل بين الموت والموت. لذلك، أدعو دول العالم الثالث إلى العودة إلى الجوهر، وإلى الوقوف وقفة واحدة في مواجهة الجحيم».

حتما لم يكن أوكتافيو باث يدري أن الفلسطينيّ سيقف في مواجهة الجريمة وأمريكا وحيدا. ومحمود درويش، الشاعر الذي كان طفلا يحسب أن البرتقال ينبت في الصناديق، سيحرص كما شعبه على الترحاب بالأصدقاء العرب، يلغي سفره إلى باريس ويستبقنا إلى رام الله ليرحّب بنا في فلسطين، وهو الذي أعلن أن الجريمة صنو أمريكا فكتب وبيروت تتّقد نارا وصبرا:

وحدنا نصغي لما في الريح من عبث ومن جدوى
وأمريكا على الأسوار تهدي كل طفل لعبة للموت عنقوديّة
يا هيروشيما العاشق العربي أمريكا هي الطاعون
والطاعون أمريكا
نعسنا

أيقظتنا الطائرات وصوت أمريكا
وأمريكا لأمريكا
وهذا الأفق إسمنت لوحش الجوّ
نفتح علبة السردين، تقصفها المدافع
نحتمي بستارة الشبّاك، تهتزّ البناية، تقفز الأبواب،
أمريكا
وراء الباب أمريكا.

وادي النار، الطريق إلى بيت جالا المتلقّتة صوب بيت لحم

الإضراب في رام الله ما زال متواصلا.. والمدينة تبدو مقفرة خلاء لولا أبواق بعض سيّارات الإسعاف تملأ المكان ولولةً بين الحين والآخر، فيما تردّد المباني صدى الطلق الناري القادم من تخوم المدينة ومدخلها الرئيسي، حيث الحواجز والمواجهات. على الجدران ملصقات لشباب استشهدوا، بعضها قديم ألوانه باهتة، وبعضها فاقعة ألوانه كأنه ألصق هذا الصباح. وفي أسفل الملصقات كلمات تعرّف بأسماء الشهداء وتمجّد البطولة. على كلّ الجدران ملصقات لشهداء يبتسمون ابتسامات مجلّلة بالحزن. وتلك مفعولات الموت ضاريا كاسرا. يكفي أن تحدّق في العيون وستراها طافحة بهالة من سحر الموت وجاذبيّته وفتنته. الكلمات التي تمجّد البطولة والاستشهاد تبدو ذليلة لم تتمكّن من القضاء على فجائيّة الموت وضراوته وطابعه الكاسر. وعبارة «الشهيد البطل» التي تذيّل بها الملصقات ليست سوى تميمة تدرأ الوجع وتدجّن الموت، لكنّها لا تمحو طابعه المتوحّش الضّاري. فوراء عبارة الشهداء نفسها، ثمّة شباب وأطفال سقطوا في العتمة. بيوت اجتاحها النوح. قلوب داهمها الوجع كاسرا. ثكل ودمع ولا عزاء.
وصلنا إلى البيرة عبر طريق ترابيّة وعرة.. مطبّات وحفر من جميع الأحجام.. على الهضاب المجاورة يلمع قرميد المستوطنات تحت شمس باهتة.. ثمّة حشد من غيوم رماديّة بالكاد تتحرّك. يكفي أن تحدّق فيها قليلا. يكفي أن تديم النظر إليها وسترى يدا خشنة معروقة تمتدّ من خلال تلك الغيوم وتتوعّد الحياة نفسها بالويل والخراب. إنها يد إلوهيم، يد يهوه ربّ الجنود المأخوذ بالدمّ الفلسطيني. ليست زخّات رصاص هذه التي تدوي في الجوّ، إنها قهقهة هذا الربّ العائد من ليل التاريخ مخفورا بخسران بني البشر أجمعين. كانت الحافلة تعبر وادي النار، والطريق ترابيّة ملتوية. ويهوه ربّ الجنود من هناك يراقب المشهد ممنّيا النفس بمزيد من الدم الفلسطيني.
فجأة، حفنة من بيوت، حفنتان على هضبة.. الهضبة تصير هضابا والبيوت تزداد وضوحا.. بيوت معلّقة على مرتفع من الأرض.. بيت جالا، بيت لحم حيث يقيم الفلسطينيون. ومستعمرة جيلو المأهولة بنسل ابنة صهيون شذّاذ الآفاق. على بعد عدّة فراسخ لا غير من بيت لحم وبيت جالا، يربض الوحش الصهيوني مدجّجا بالليل في مستعمرة جيلو المزروعة في المكان هزءا ورزءا.

عبرنا بيت جالا.. مدينة في حجم بلدة مبنية على الصخر. الشوارع مقفرة تماما والبيوت مقفلة على نفسها. يقال إن ناس هذه المدينة يستدرّون من الكروم نبيذا يزيل الصدأ عن الروح ويطهّر الجسد. ولا بدّ أن تكون الخمر التي قدّمها المسيح لتلامذته كي يباركهم مجلوبة من هذه الديار المقفلة بالأسرار. وحتما شهدت بيت جالا خطى يوسف النجار وهو يسوق حماره ويحثّ الخطو باتجاه مصر. من هنا مرّ المجوس أيضا. ومن هنا مرّ النجم الذي كان يتقدّمهم دليلا وبشارة حتى موضع كنيسة المهد، حيث المغارة التي شهدت مولد يسوع. كنا نعبر باتجاهك بيت لحم.. وكان يهوه في الأعالي يرقبنا. نابه الأزرق يلمع من خلل السحاب. ومن خلل السحاب ما زال يمدّ يده الغليظة المعروقة مزدهيا بجرائم شعبه المختار، مباهيا بابنة صهيون بين الأمم.
دير العبيدية: دير مقفل.. جدران عالية.. باب صغير مثل كوّة في جدار ضخم.. قدّام الباب راهب يحدّق في الفراغ.. كأنه على يقين من أن يهوذا هو الذي قال لا المسيح. وصلنا حقل الرعاة. فجأة: بيت لحم. لافتة ترفرف كلما هبّت نسمة من هواء:

«الجمعيّة الخيريّة الوطنيّة ترحّب بقداسة البابا يوحنّا بولس الثاني»
هذه اللافتة هي ما تبقّى من احتفالات الألفيّة الثانية التي حضرها البابا القادم من روما. كلّ ليلة تقصف بيت لحم والبابا لا يحرّك ساكنا. الأب عطاالله حنّا المرابط في كنيسة القيامة بالقدس يعرف كيف يحافظ على شرف الاسم ويصون أمجاد رجال عاهدوا التاريخ العربي وتواصوا بالصبر رسوليّا.
البابا بعد الاحتفالات لم يتلقّ صوبك بيت لحم. هي ذي كنيسة المهد.. كنيسة وسط ساحة عظيمة.. مدخلها كمدخل دير العبيدية، مجرّد كوّة صغيرة مستطيلة. يجب أن تنحني حتى لتكاد تلامس الأرض بيديك كي تدلف إلى الداخل.
مطران يشبه كائنا من أثير، يلبس رداء أسود، استقبلنا على العتبة ونبّهنا إلى ضرورة الانحناء كي لا نصدم بالجدار هاماتنا. صوته حفنة من الوشوشات بالكاد تسمع. داخل الكنيسة حشد من السياح الأجانب ونظرات بلهاء. قطعان من العجائز والشيوخ.. والكنيسة من الداخل على شكل صليب.
أيقونات في منتهى البهاء: هو ذا المسيح الرضيع يبتسم لنا. هي ذي أمّه العذراء. والمجوس جاؤوا. ها هم يسجدون له ويطرحون كنوزهم قدّامه. عباءات سود تسير على الأرض في تؤدة وسكون وتحيط بنا. داخل العباءات مطارنة بالحزن والوجل والنور طفحت وجوههم. مطارنة فلسطينيون يبتسمون لنا مرحّبين بالإخوة العرب الذين جاؤوا في هذه اللحظة التاريخيّة التي يسفك فيها الدم الفلسطيني مسيحيا ومسلما في بيت لحم. وروما تلزم الصمت كأنها جزء من النظام العربي الباسل.
أنزلونا إلى المغارة، حيث شهد المسيح النور. رائحة البخور والرطوبة والشموع تملأ المكان. هنا ولدته العذراء التي حبلت به من الروح القدس. هنا المجوس سجدوا له. صوت الراهب كان خفيضا كنسمة رقيقة تمرق بين أعشاب يابسة. «الإسرائيليون هم الذين يستفيدون من كنيستنا ويستثمرونها سياحيا. لهم 1500 دليل سياحيّ. أما نحن الفلسطينيين، فلا نملك إلا 150 دليلا. وفي دعاياتهم لاستجلاب السيّاح، يرفعون شعار زوروا إسرائيل تنعموا بزيارة كنيسة المهد». هكذا قال المطران فيما طفحت عيناه بحزن

صامت عميق يجعلك تخجل من انتمائك للجنس البشريّ.
يهوه، يا ربّ الجنود، أعرف أنك في الخارج بانتظارنا، وجندك شذّاذ الآفاق على مرمى حجر من كنيسة ترجّلت النجوم في ساحاتها ذات نهار. حين كنا نغادر كنيسة المهد، خيّل إليّ أنني رأيت على الجدران بقيا من غبار أجنحة الملائكة. وكنت على يقين من أن يهوه لم يرسل جنده لتدمير كنيسة المهد لأنها تدرّ على عبدته نسل ميليكداس مالا وفيرا.
وللقردة في الدنيا قاطبة أن تنوح على نفسها، فثمة قرب سور الأقصى قردة مخبولة تهزّ الرؤوس زاعمة أن السور حائط أعدّ لدموع التماسيح ما كان منها وما سيكون، وطوبى للعرب المستسلمة.
مهد المسيح في خطر، والبابا يوحنّا بولس الثاني لا يحرّك ساكنا، لعلّه على يقين من أن يهوه، ربّ الجنود، لن يأمر عساكره بإحراق كنيسة المهد لأنها تدرّ على ما يسمّى دولة بني إسرائيل مالا وفيرا.
شارع بولس السادس، شارع النجمة، طريق المطارنة. من ساحة المهد تتفرّع الطرق جميعها والبيوت تنتشر محيطة بالكنيسة كأنها تخشى على المسيح من الصلب ثانية. طريق المطارنة شارع يمتدّ من ساحة كنيسة المهد حتى سوق بيت لحم. في وسطه بالضبط، بالقرب من مدرسة الراهبات، مدرج ينحدر متسلّلا بين البيوت المقفلة. ولا شيء هناك. لا شيء.
فجأة، لمحت قطّة رماديّة منقّطة بنقط سوداء تهبط المدرج لائذة بالجدار. تمهّلت في مشيتها.. وقفت.. الرأس مال.. الرأس دار.. جذعها لم يتحرّك.. عينان صفراوان أشعّا في عتمة المدرج.. واصلت القطّة الهبوط كسلى مخفورة بسحر سرّي.. لعلّها رهبة المكان.. صورة محمد الدرّة ثانية.. والروح صارت رمادا.. الكرامة العربيّة صارت مجرّد ذكرى بعيدة، وعلى الفلسطيني أن ينهض للصراع من جديد ليبدّد بعضا من نكد أيّامنا. صوت صارخ في شاشة التلفزيون: مات الولد.. مات الولد.. مات.. وحكام، رؤساء، ملوك: موظّفون سادوا في نهايات الزمان العربي وقد استبدّ بهم الرّعب من الوعد فلسطينيّا، حتى غدوا أقنعة للهلع يطلعون كالفزّاعات على الشاشات والفضائيات مرتبكين مرتعبين من الزلزلة. وتلك مفعولات رسالة الفلسطيني، ذاك طابعها الرسوليّ وبعدها الإشاريّ والرمزيّ.

* * *

مطعم بيت جالا.. صاحب المطعم في عمر المسيح يوم أسلمته ابنة صهيون الضالّة إلى حتفه. شاب ملتح وسيم وقف يرحّب بنا نحن الإخوة العرب الذين نمثّل جزءا من الوجدان العربي في أمّة غدا ناسها مثل الهوام بالضبط، لا أمل ولا فرح ولا غاية، شابّ فلسطيني كنعاني خالص، أسلافه رأوا يوسف النجار يحثّ الخطى باتجاه مصر، وحموا المسيح رضيعا مهدورا دمه، جاء يخدمنا مبتهجا بالإخوة العرب.. سألته حذرا:
– عزيزي، اسمح لي، هل أنت مسيحي؟
– أنا فلسطيني مسيحي.. مرحبا! يا هلا!
– قيل لي إن بيت جالا تستدرّ من الكروم نبيذا فردوسيّا.

– أمّي تصنع نبيذا في البيت، لو جبت الأرض، لن تجد له مثيلا.
سألته مداعبا، هل عندك إخوة، فأجابني بأنه سادسهم.. فاقترحت عليه مداعبا أن أصير أخا له، وسألته هل تقبل أمّه بأن أصير لها ابنا سابعا.. فكان أن أهداني قنينة التأمت بعدها شظايا من روحي التي صارت مزقا ونفايات.. بعد مغادرتنا للمطعم بعشر دقائق، ابتدأت المواجهات في بيت جالا، واختطف الموت شهيدين في مقتبل العمر.

العشاء الأخير

غدا صباحا سنغادر رام الله إلى الجسر. فندق BEST EASTERN وقت العشاء.. مطعم الفندق في القبو.. والنور خافت.. الفوانيس المعلّقة على الجدران بالكاد تطرد العتمة. والشباب في المطعم يخدموننا بتفان وبكرم منقطع النظير.. الابتسامة وعبارة «هلا، تؤمر» تسبق النادل إليك. الشباب فرحون بنا نحن الإخوة العرب القادمين من العواصم العربيّة التي «استتبّ فيها الأمن» تماما، حتى غدا الناس فيها مثل الظهورات من شدّة وطأة الديمقراطيّة المخفورة برجال الأمن وبالخوذات والعساكر وأحذية الجنرالات.
نحن القادمين من أوطان غادرها المستعمرون بدءا بالنصف الثاني من القرن العشرين، علينا أن نفرح ونهلّل. فنحن نملك تحت الشمس علما ووطنا وأشياء أخرى. لكننا جميعا حزانى حزنا صامتا تعوّدنا عليه وألفناه حتى غدا جزءا من كياننا.
الجميع يائسون، يدركون أن العدالة في الوطن العربي مجرّد فكرة تلوذ بالكوى المعتمة، وكثيرا ما تتلقّت في السرّ مذعورة من أحذية العسكر ورجال الأمن، وفي الليالي الشتائيّة الموحشة، كثيرا ما تجلس مسدلة الشعر في منعطفات الشوارع وتمعن في النحيب. كبير الطبّاخين في مطعم فندق BEST EASTERN يتقن إعداد شوربة البصل. أنا طلبتها مرارا قبل هذا العشاء الأخير. هذه الليلة جاءني النادل بها دون أن أطلبها.. سألته عن كيفيّة إعدادها.. ودوّنت ذلك.. فجأة:
هو ذا ابن الشعب يدخل.. هو ذا ابن الشعب الفلسطيني الناس والأسطورة يهبط الدرج إلى المطعم ومعه بعض من رفاقه من مناضلي حركة فتح. مروان البرغوثي. هذا هو اسمه.. حيّانا مصافحا.. ورفاقه، أيضا، صافحونا بحرارة.. عيونهم كانت زائغة قليلا. للتوّ قدموا من خطوط التّماس حيث تجري المواجهات. أمين سرّ حركة فتح.. درس في جامعة بيرزيت. عرف السجون الإسرائيليّة، وذاق الإبعاد، ووصل حتى الشمال الأفريقي ذات مساء بعد مجيء المقاومة كسيرة النفس والأمل إلى تونس. هو ذا ابن الشعب الفلسطيني جاءنا، نحن لم نمض إليه، هو الذي اختطف نفسه واصطحب رفاقا له في الكفاح وجاء إلينا ليلة العشاء الأخير.
سألناه عن الوضع، من طريقته في صياغة جمله وترتيبها والتلفّظ بها، سرعان ما تدرك أنك في حضرة قائد ميداني. شكر الأمّة العربيّة.. شكر العرب.. نوّه بالشارع العربي مليئا بالغضب.. «لن نقول بعد

اليوم يا وحدنا! لسنا وحدنا، وجودكم معنا في هذه اللحظة يدلّ على أننا لسنا وحدنا.. الشارع العربي معنا.. لم نكن يوما وحدنا». عن قتل الأطفال حدّث؛ عما رأيناه في بيوت العزاء وما رأيناه في المستشفيات، عن إصرار الأم الفلسطينيّة حدّث. أبو إياد لم يقتل في تونس إذن. هي ذي روحه تعود إلى الأرض. وأبو جهاد تسمع نبرته في صوت ابن الشعب هذا. والرفاق من الديمقراطيّة والشعبيّة والحزب والإخوة من الجهاد وحماس، كلّ الذين قتلوا غيلة وغدرا تكاد تسمعهم في صوت ابن الشعب هذا الذي جاءنا وقت العشاء الأخير. الشباب الذين كانوا قبل مجيئه يخدموننا في المطعم، أنا الذي رأيتهم واجمين مثلنا يصيخون السمع إلى هذا الصوت الحامل وجع الفلسطينيّ وإصراره على أن يولد في الليل العربي نهار -أنا الذي رأيتهم واجمين مثلنا- أشهد أن عيونهم كانت تفيض بنوع من الفرح الطفوليّ الساحر والحنان. يهوه! يا يهوه! يا ساديّا ووحشيّا! يهوه، يا قادما من مملكة الدياجير.
يا يهوه! يا ربّ الجنود، لست أنا القائل ولا أنت، وإنما هو صوت صارخ في البريّة يدوي قائلا: «كما تنبع العين مياهها، هكذا تنبع ابنة صهيون الضالّة شرّها، ظلم وقتل ومثل قفص ملآن طيورا، هكذا بيوت أبناء صهيون ملآنة مكرا». في الشارع يسمع دوي القصف، ولعلعة الرصاص. ابن الشعب هذا الذي جاء إلينا أعلمنا أن المروحيات قد دخلت المواجهات.. حجر ودبابات.. حجر وصواريخ.. حجر وقنّاصة.. حجر وطائرات.. مجّدت يا أمّة العرب.. ومجّدت معك أمريكا.

*   *   *

من نافذة طائرة الملكيّة الأردنيّة، لمحت القدس التي منعنا الجند الغزاة من زيارتها، لمحت قبّة الصخرة وأنا عائد إلى تونس، رأيت حيفا، طائرات حربيّة صهيونيّة حلّقت على بعد فراسخ من طائرتنا، ولم تقصفنا لتثبت لنا أن للسلام الذي هو صنو الاستسلام محاسن وفضائل وأشياء أخرى.

*   *   *

وصلت إلى بيتي ومعي شيئان: شيكلان وكيس زعتر اشتريته من رام الله.. كيس من نايلون عليه ورقة خضراء كتب عليها بالأحمر:

زعتر أبناء الريف ZATAR ABNA AL-REIF
مفروك بالزيت البلدي
المحتويات: زعتر بلدي- سمسم بلدي- سمّاق- ملح. تاريخ الانتهاء 30 03 2001
رام الله- المنطقة الصناعيّة- تلفون: 022981713

وشيكلان: قطعتان معدنيتان مدوّرتان كعيني حيّة رقطاء. افتقدتهما في صباح الغد.. وكان أن عاد

ابني علاء 13 سنة من المدرسة حانقا ووجلا بعد الظهر.. صارحني معتذرا بأنه قد تسلّل إلى مكتبي خلسة واستولى على الشيكلين. وهناك قدّام المدرسة اجتمع هو وأقرانه واقتطعوا من كرّاساتهم ودفاترهم أوراقا لفّوا فيها الشيكلين وأضرموا فيهما النار وهم يردّدون الاسم، كانوا يرفعون الاسم عاليا، اسم الحلم العظيم الضّاري: فلسطين. ولكم كان ذهولهم عظيما عندما لم تأت النار على الشكليين المعدنيين. فكان أن ازدادوا إصرارا وانهالوا على القطعتين سحقا بالحجارة حتى أتلفوهما.

* * *

أنا لطفي اليوسفي المقيم في الشمال الإفريقي، أنا الذي ذهبت ورأيت، أعترف أنني هناك في فلسطين، رأيت الوجع ربّانيا، ورأيت الفعل رسوليّا. وأعترف، أيضا، أن ما رأيته في بيوت العزاء وفي المستشفيات والشوارع ليس شهادة واستشهادا فحسب، بل هو حدث عبور للحدود الفاصلة بين السماويّ والأرضي، بين ما هو بشريّ وما هو ألوهي.
ثمّة فسحة من أمل في دياجير هذا الليل العربي. خطوة باتجاه الطريق المؤدّية، خطوة.. خطوتان ومن حقنا أن نواصل الحلم.. ولتحيَ الحياة.

---

*ناقد وأكاديمي من تونس.

الحقيقة عارية في لهب المغيب

سيف الرحبي *

منذ رجوعي من فلسطين، وأنا أتهيب الكتابة حول هذه التجربة الاستثنائية، نحن الذين رضعنا حليب فلسطين مع حليب أمهاتنا، تلك التجربة التي عشتها مع أصدقاء وزملاء جمعتني ببعضهم لحظات حرب بمعنى الأعمال العسكرية والمسلحة في إدارة الصراع بين الجماعات البشرية، وعشتها مع الشعب الفلسطيني في الداخل، في «وطنه وعنوانه» الذي خاض من أجل الوصول إلى بدايته الحقيقية كل هذه المجازر والحروب والاقتلاعات والشتات، كل هذه التراجيديا التي كانت 48 بداية الفصول الأكثر كثافة ودموية وانحداراً للعصور العربية اللاحقة.
من هنا كانت كلمة محمود درويش في اللحظة الأولى للقائنا أمام الفندق الذي يطل على هضبة بين رام الله والبيرة «أهلاً بكم لأول مرّة في بلدنا». كان معظم الأصدقاء الفلسطينيين الذين عشنا مطلع عمرنا الجارف والثوري وأحلامنا الفكرية والثقافية بالضرورة خارج فلسطين بين أماكن وقارات شتى. كانت سمة التيه الفلسطيني تطبع جيلاً كاملاً في الثقافة العربية بالمعنيين الرمزي والواقعي.
هذه أول مرّة أراهم في مرآة «وطنهم» المتشظية والمتصدّعة، على هذا النحو المريع، وكان من «حظنا» أن ينفجر القهر الفلسطيني ويبلغ ذروته في انتفاضة الأقصى التي عشنا بعض مشاهدها والتي عمّقت قناعاتنا ببربرية العصور الحديثة الأكثر فتكاً ووحشية من سابقاتها المتواضعة في هذا السياق.
مشهد الأولاد الذين يواجهون بصدور عارية واحدة من أعتى الآلات العسكرية في العالم، وشعب مجرد من أي سلاح غير إرادته التي لا يمكن قهرها، وحدي وأعزل وسط تواطؤ العالم، سيد العقل البشري الحديث، هذا المشهد اليومي في شتى المدن الفلسطينية يحمل دلالة قيامية، أكثر من أي حدث آخر، ويحمل دلالة أعمق على المستوى الذي وصل إليه انحدار إنسانية البشر وشرطهم الأخلاقي والقيمي الذي

اكتسبوه عبر تاريخ طويل جداً عبر أزمنة العرب و«المسلمين» من المكابدة والكفاح ضد الوحشي الرابض في الأعماق منذ بدايات الكائن على هذه الأرض.
كان الفندق الذي نزلنا فيه ليس بعيداً عن خط التماس بين رام الله ومستعمرة «بيت إيل» الضخمة التي تبدو بنيتها المعمارية المستفزة والعدوانية كأنما نزلت هكذا جاهزة بشوارعها وسكانها وأضوائها ومراحيضها من غير جذور ولا امتدادات ولا زمن.
هكذا، كأنما كانت محمولة على متن قاذفة نووية عملاقة وقذفت دفعة واحدة في هذا المكان، وهكذا تتبدى كل المستوطنات التي تشكل أسواراً محكمة حول المدن الفلسطينية العريقة، كاتمة حتى الهواء عن أشجار هذه المدن وحياتها وعناصرها. كان صوت الرصاص على خط التماس يخترق ليل المدينة طواله والسهل الفلسطيني بتلاله وجباله الملحية الممتدة حتى بيت لحم والقدس و.. إلخ. فما يقصر عن إنجازه الدموي الجيش الإسرائيلي يتكفل به المستوطنون –أو العكس– أولئك القادمون من كل جهات الأرض، حثالة وزعران، مدججين بالأسلحة والتعصب الأعمى والانحطاط، حتى ليبدو أمامهم زعران المنتخب الإنجليزي ومناصروه نوعاً بشرياً أرقى، ولربما سادة محترمين، لا نكاد نتحرك بين المدن الفلسطينية إلا ويأتينا التحذير وهواجس الخوف، ليس من الجيش الذي يمارس الإذلال اليومي وإنما من المستوطنين وحواجزهم وعدوانيتهم الطليقة وتعطشهم لدماء الآخر وسحقه. لقد طلعوا مثلما ولدت إسرائيل برمتها من رحم الميثولوجيات اليهودية وخرافاتها الخرقاء كما طلعوا من رحم المعرفة العلمية للعصر الحديث الذي يشكل الغرب وأمريكا واليهود عصبه المركزي، فهم في تفوقهم مستخدمين إنجازات هذا العصر وأسلحته المدنيّة والعسكرية أمام مختلف البلدان العربية التي لا يبدو في نيتها أو «مشروعها» الدخول الحقيقي في المجتمع المدني وتعدده ورؤاه، أي الدخول في العصر الفعلي للحضارة البشرية الراهنة.
هذه الازدواجية المخيفة التي تثقل كاهل إسرائيل وتطوح بها بين السمو المدني والحضاري الذي تدّعيه أمام تخلف «الآخر» العربي، وهو كذلك فعلاً، وبين عصابة من القتلة وشذاذ الآفاق الذين يعيشون في دائرة مغلقة من الرعب المتجذر في النفوس من هذا «الآخر»، رغم تفوقهم الساحق. فهواجس الخوف التي يعيشونها هي هواجس المنبّت التي سرق أرض الغير وحياته وتاريخه وبنى على أنقاضها وجثتها حياته الأخرى المرتجفة باستمرار وسط هذه الرمال العربية والإسلامية التي لا بد في هياجها القادم ستجرف كل شيء أمامها.
هذا على ما يبدو هاجس صميمي من بين الهواجس التي تفترس الذات الإسرائيلية، وإلا، فما معنى هذه القيامة العسكرية الموتورة وهذا السحق لشعب أعزل طليعته رماة الحجارة والزجاجات من الأولاد والأطفال؟ وفي الوقت الذي يمد فيه الفلسطينيون والعرب يد التعايش والسلام الطامح إلى نوع من العدل المقبول على المستوى الإنساني.
تفاصيل كثيرة ومواقف عشناها خلال أيامنا في الأراضي الفلسطينية، لم يكن هذا العام المتفجر يحجب تلك التفاصيل الشخصية البالغة الحميمية والرهافة والحنان من الأصدقاء الذين لم نلتقهم منذ عشرين عاماً ربما في الشام وبيروت وصوفيا، عشنا معهم كثافة اللحظة وعمقها ومرحها. ويبدو أن الأرواح يكون لقاءها أكثر عمقاً ودفئاً في اللحظات الاستثنائية والخطرة في حياة البشر وتنجلي الكثير من

الأوهام والهواجس الرديئة التي تسرطن الكائن في لحظات العطالة والخمول والروتين اليومي.
إنها الحقيقة عارية في لهيب المغيب.
لقد تأجلت أعمال المؤتمر التي ذهبنا لأجلها، من غير أسف، المؤتمر أو الملتقى الذي دعا إليه بيت الشعر وعلى رأسه المتوكل طه القائد الميداني الذي لا تنقص صرامته القيادية في خضم تلك المنعطفات الضاجة بالقتلة، لا تنقصه الطفولة والمرح، والشاعر غسان زقطان الذي خيّر هاشم شفيق لحظة ذهابنا إلى بيت لحم وكان هاشم قد صحا متعباً بعد سهرة قاصفة مع المنصف الوهابي وفيصل قرقطي ويوسف عبد العزيز وآخرين، إما الذهاب بطيب خاطر، أو الخيار الآخر، وهو إخبار المتوكل بالأمر وما تتبعه من نتائج ترتعد لها عظام هاشم، حكايات وطرائف كثيرة اختزنتها ذاكرتنا، هي من الجمال والعذوبة بحيث لا يطالها النسيان تماماً.
لقد تأجلت أعمال الملتقى واستبدلناها بأشياء أكثر أهمية وثراء روحياً وبقاء في التجربة، رغم أني لا أتمنى بالطبع أن يكون ثمن هذه التجربة الثرية على الصعيد الشخصي ذاك الثمن الفادح الذي يريقه الشعب الفلسطيني من أبنائه وحياته اليومية، لكنها الحرية وحلمها البعيد الشاق.
في قلب هذا المشهد المتفجر، يعيشون، بهدوء، حياة شبه عادية، فكأنما الفلسطيني عبر هذا التاريخ المتراكم من المآسي والاقتلاعات تعلم الدرس جيدا، وصار يسري في السلالة، وهو كيفية البقاء وفن الحياة وسط الأعاصير التي حملت الفلسطيني من مكان إلى آخر، يعيشها ويتنفسها حالما بالوطن الحقيقي والسلام حتى لو يتحقق بعد أجيال.
رغم ذلك الوضع المأساوي، استمرت حياتنا مع الأصدقاء على نحو عذب وعميق قلما عشناه في مكان آخر، كأنما إشراقة لرؤيا مفاجئة، إشراقة صداقة ومحبة في ذروة الألم، ولا أنسى تلك اللفتة الإبداعية بسموّها الخاص من قبل مسرح عشتار في رام الله الذي قدم عملاً، نسيجه مقاطع منتقاة من شعرنا نحن الزائرين في غمرة هذا الحدث.
مديرة المسرح الست إيمان والفنانة منيرة زريقي والفنانة تهاني سليم التي كانت جزءاً من روح المكان وشفافيته الجريحة في الحياة والمسرح، حيث قامت بالدور فيه مع زملاء قدموا من مدن فلسطينية كان الحصار محكما عليها، رغم ذلك، تسللوا وسط الخطر المحدق ليشاركوا في هذه اللفتة التكريمية الدالة.
الفن انتصار للحياة ولو عبر جسر الموت الكاسر.
في حومة هذا المشهد أيضاً، وخلال تنقلنا بين المدن والقرى، وزيارة عائلات الشهداء وساحات معارك البارحة، وفي جلساتنا مساء في الفندق ومشاهدتنا لمحطات الإعلام العربي التي يبدو معظمها يتغذى ويعتاش على فجائع البشر وآلامهم وكأنما في عيد، أدواته الجثث والأشلاء والأسلحة، لتكون وليمة الإثارة ومتعة المشاهدة أكثر وقعاً، تتحول إلى سيرك من المهرجين الذين تتفجر عبقرياتهم في تلك المبارزات والصناعات اللفظية الثقيلة.
في تلك الأثناء وغيرها، لا أعرف لماذا تلح علي عبارة (العَدَم الضاري)؟ حتى إن الصديق لطفي اليوسفي على باب «الأسانسير» يودعني بـ(تصبح على العدم الضاري والهوام).
تحية لأصدقائي الصامدين على أَرضهم بعد أن طوّح بهم ظلم ذوي القربى الأشد مضاضة إلى أراضٍ

كابوسية لا سقف لها ولا قرار.
وتحية لمن تقاسمتُ معهم هذه الرحلة من ذكرت منهم عفو الخاطر في هذه العجالة ومن لم أذكر، لكنه موجود في زاوية ما من الأعماق.
رغم التباس ثنائية الوطن – المنفى على الصعيد العربي الراهن، يظل الوطن الفلسطيني على صفائه، في ضوء الكارثة واحتشاد الحنين.

---

*شاعر من عُمان، رئيس تحرير مجلة «نزوى».

عندما نكون في ملكوت الضياء
يوميات وفد الشعراء العرب إلى فلسطين

هاشم شفيق*

أهرب من سحاب ثقيل، وريح يلوّحها سواد داكن، باتجاه أرض أخرى، ها هي عمّان – أو عمّون، تتهادى متلفعة بسطوع العصور، مرّة نبطيّة وأُخرى رومانيّة، وفي طورها الأخير عربيّة، هي أرض سدوم وعاموراء، وأساطيرها تثبّتها أكثر في الإشراق الطارد للسديم.
في الطريق، تواجهني إعلانات ضوئيّة كبيرة تتكئ على حمولة شعريّة، يلخّصه شطر بيت للمتنبي «على قدر أهل العزم»، عبارة موحية تفسّر دلالاتها الكثيرة طاقة هذا البلد، على صغره في المساحة والثروات الماديّة، لكنّ التجلي الروحي، يشير إليه هذا الإعلان الذي يحمل صورا بهيئات وسحن وأزياء مختلفة من عامة الشعب الأردني – المهندس والطبيب والفلاح والراعي وطلبة العلم من شتى الحقول المعرفية، إنه الإعلان الذي يدل على البساطة والحقائق الأرضيّة، عكس دول الجوار التي ترفع صور الديكتاتور بهيئات وأزياء مختلفة، ولكن بالسحنة القاسية ذاتها، حين ترتسم البشاعة لتؤكد الخوف والخرافة.
صباحاً في الفندق، يأتي رسل شعريون، يبعث بهم بيت الشعر في فلسطين ليكونوا الدليل في النزوح إلى هناك، كنا ثلّة من الشعراء المغامرين، يشدون الرحال صوب ملكوت الضياء، باتجاه الأرض المحلومة فلسطين، كانت الأنباء تتواتر عبر القنوات المرئية عن الحريق الذي اندلع في سماء الضفة الغربية، ثمة نداء يصلني من سعدي يوسف، يشير إلى تعاظم الأمر واتساع المحرقة، لكن موكبنا ها هو يتغوّر بعيداً في الأغوار، وها نحن قريبون من ضفاف نهر الأردن، ومن الجسر الملكي ذي الشهرة الحربية، هنا روائح ما زالت عالقة من معركة الكرامة، بين هذي التعاشيب والطحالب المخملية، وهنا قضّى الكاتب الفرنسي جان جنيه »الأسير العاشق« للفدائيين شطراً من حياته تحت سقائف الصفيح وخمائل شرقية، كانت

تُصنّع القلق ومن ثم تصدّره إلى دولة إسرائيل.
نعبر الجسر، وما هي إلا خطوات لنكون بين تلال ومنحدرات بيضاء، مهيّأة للصمت والوحدة والخشوع المتسامي وسط هذا الخلاء والبراري الذهبية الممتدة حتى مدينة أريحا التي تنخفض إلى 333 متراً تحت سطح البحر، أريحا مدينة وادعة تحملها خفّة واضحة، الهواء فيها موسوم بمناخ استوائي، فواكهها وخضارها وثمارها متوافرة في جميع المواسم، مدينة سياحة ودلال، أرضها هي أخفض بقعة بين أراضي الدنيا، وحسب الأسطورة الكنعانية، تعد أريحا أقدم مدينة مسوّرة في العالم.
ها أنذا في ملكوت الضياء، أنظر عبر شجرات النخيل من شرفة غرفتي إلى «جبل التجربة»، حيث كان يقتفي يسوع المسيح تأمّلاته وعبادته مناجياً الروح القدس، وعلى مرمى خطوات، تلوح المياه الكثيفة للبحر الميت الذي به يكتمل المشهد، ليضفي البحر التوازن على الحالة التاريخية والجغرافية لهذا المشهد البليغ.
إنه موضع للتأمل وللإيغال في التهجّدات والإشراقات الروحية، كل شيء فيه دليل التروحن، لا أشياء مادية هنا تعيق الهجرة إلى المجاهل والإبحار في الماوراء، الروح تصفو ناشدة رقّة الكريستال في هذه البطائح الذهبية، يجتمع بعض الأصدقاء الموسومين بنار الشعر، في شرفة غرفتي، فالمساء دافئ وأنيس، نأتي بعد هجران صالة الفندق، لنستطرد في الشعر ونطيل الليل، نمدّه إلى آخره، يشير غسان زقطان إلى ضياء ما يرتعش فوق هضبة قريبة، فيقول إنها مستوطنة جديدة، بنيت بشكل متعمّد، لتطل على «جبل التجربة»، قلت لغسان، كيف تعرف أنها مستوطنة، قال: أعرف هذا النوع من الإضاءات ولا أخطئه، وأشار إلى مكان آخر وقال: ذلك الضوء أردني، وهو ضوء مدينة طفولتي، وأما ذاك، فإنه ضوء القدس، نعجب من تعابير غسان الضوئية، ونضحك لجهلنا التام في مسألة الضياء.
في الصباح، نهيئ أنفسنا للذهاب إلى «رام الله»، الهواء لم يزل ساخنا وثمة أنباء عن معارك قد تصادفنا في الطريق. فعاليتنا الأولى كانت عقب وصولنا إلى أريحا، حيث ذهبنا لحضور حفل افتتاح المهرجان، الذي تحول إلى مهرجان خطابي تضامناً مع الانتفاضة. ألقى وكيل وزارة الثقافة الروائي يحيى يخلف كلمة الافتتاح، أعقبه المتوكل طه رئيس بيت الشعر، ومحمد لطفي اليوسفي، ثم قرأ الشعراء المنصف الوهايبي وجريس سماوي ويوسف عبد العزيز قصائد تتناسب مع الوضع المتفجر.
على مرمى خطوات منا في أريحا نفسها، كان التصعيد على أشده، تحرك الموكب باتجاه رام الله. في الطريق، لاحت علائم الانتفاضة، المواد والعناصر التي يشتغل عليها الفتيان، أوغلنا في بطون الفيافي، قلت، هذا هو الجمال المنداح في النضار، فأجابني سيف الرحبي: إنها تلال جرداء يا صاحبي، فقلت له، لقد سئمت التلال الخضراء في البلاد الأجنبية وروحي تهفو لهذه القفار، عقّب محمد لطفي اليوسفي قائلا: إنه عراقي ويحب التراجيديا.
على مدخل رام الله، تقع مدينة «البيرة»، وهما مدينتان متداخلتان فيما بينهما، نرفع العلم الفلسطيني على سيارتنا كي لا يتصورنا الفتيان الفلسطينيون مستوطنين.. ها هم إذن أطفال الحجارة الذين كتبنا عنهم القصائد والمقالات منذ عام 1988.. ها هم يتهيأون لبدء العمل، إنهم يجهزون العدة، غحضار دواليب سيارات، بقايا سيارة توضع كحاجز بينهم وبين رصاص العدوان من الجيش الإسرائيلي والمستوطنين،

تكسير حجارة وشد المصائد «النقيفة» وجلب نفط وأعلام لأغراض الإشعال. ها هم، أكبرهم لا يتعدى العشرين، يقلقون بقبضاتهم الحليبية دولة مسلحة، بعدهم بمسافة قليلة، كانت هناك تظاهرة تشييع شهيد. إن هذه المظاهر باتت أمراً شائعاً، فالشعب هنا، كله معبأ ومحتقن وجاهز للتفجير والثورة. إنها ثورة حقيقية، جبارة، ضد المحتلين بأجناسهم المختلفة، جيش وشرطة ومستوطنون هم بقايا لها أرومة تمتد عبر أجدادهم وآبائهم في سلسلة القتل الذي كانت تمارسه عصابات محترفة شكلت منذ مطالع القرن الماضي، هدفها الاغتيال والترحيل والاستيلاء على البيوت والأراضي بالقوة المسلحة، إنهم عصابات الهاغاناة، بقايا العصابات المتصهينة المعروفة بشتيرن وآرغون، هؤلاء الذين نراهم جالسين في العلا ومسوّرين بالأسلاك الشائكة، تحميهم القلاع الجديدة في الأعالي، هم أحفاد الهاغاناة الذين جلبوا من شتى الأمصار، أناس كوزموبولوتيون، لا يجمعهم جامع، لا المكان الذي جاؤوا منه، ولا اللغة التي رحلوا منها، ولا التاريخ الثقافي ولا الاجتماعي المشترك، بل يجمعهم وهم واحد نائم في سطور التوراة، يستمدون منه مطلبا شرعيا حديثا ودوليا، هو أنهم في أرض عسلية، مترعة بالحليب، وهم على ميعاد فوق هذه البقعة، من هنا تراهم ينفلتون بسعار محموم مزودين بمطاو وأسلحة نارية تجاه السكان الأصليين، لغرض إبادتهم مثلما فعل الأمريكان البيض بالهنود الحمر، ومٍما تناقلته الألسن هناك أن مجموعة من المستوطنين أمسكت شاباً فلسطينياً ودقت في جسمه المسامير، وآخر مثلت بجسده، حيث فقأت عينه وبترت أطرافه، إلى آخر المشاهد من فنون التعذيب النازية.

صديقنا الشاعر الأردني جريس السماوي ودّ أن يغادر بعد قضاء يوم واحد في رام الله، لالتزامه بمهمات في الأردن، لكنه عاد مرتعبا بعد أن منعت عبورهم مجموعة من المستوطنين مستخدمة الحجارة ومواد حارقة لقذفها على السيارات العربية.

بهذه الطريقة، إسرائيل تنتحر ببطء، وكما قال الكاتب الإسرائيلي غروسمان صاحب كتاب «الزمن الأصفر»: «آه، وطني ينتحر ببطء»، وهنا نقول لغروسمان، أهو وطنه حقا؟ صحيح أنه يدين ممارسات إسرائيل ضد الفلسطينيين في كتابه هذا، إلا أنه لا يريد الاقتناع بأن هذه الأرض هي ليست له «ففلسطين للعرب كما هي إنجلترا للإنجليز وفرنسا للفرنسيين»، على حد تعبير الزعيم الهندي غاندي، هذه الحقيقة التاريخية أشاح عنها الإسرائيليون بوجوههم، ضاربين عرض الحائط بالحق العربي الصافي في فلسطين، مصوبين فوهات بندقياتهم نحو التاريخ والتراث والثقافة والإنسان المتمسك بحجره وجذوره وروائحه المكانية وهويته ذات البعد والعمق العربيين.

في اليوم التالي لوصولنا إلى رام الله، حيث مركز إقامتنا، تغيرت طبيعة المهرجان، وهذا أمر طبيعي في هكذا أوضاع، نرجئ الشعر لنعيده إلى محله في الخيال، وهو سيعيد فيما بعد ترتيب هذا المشهد الدامي الدائر الآن فوق هذا التراب الباذخ، برنامجنا كان عيادة جرحى الانتفاضة في المستشفيات، التي تغص بهم، كان المشهد لا يشي بغير الأحمر، مشاهد ليس في وسع المسافر التحديق بها طويلاً، الجروح تترى، تصطف في المستشفى، جروح لأمهات وآباء، جروح تستلقي على الأسرة بعناء، لشدّة عمق الإصابة، أو لشدّة توغّل الحرق في مواضع الأجساد، صدور مخترمة بالرصاص، رؤوس تورّمت ونتأتْ نتيجة إطلاق الرصاص الحي المدروس الهدف، في إحدى غرف الأطباء، عرض علينا الطبيب عيّنات

من الرصاص، أخذت واحدة وفحصتها، فإذا بها رصاصة ثقيلة، ولكنها للخداع، مغلّفة بمطّاط خفيف، ينتأ شكلها الرصاصي، ويبرز مخترقاً غلافه المطاطي، هناك رصاصات عيار 500 تقذفها مدافع «لاو»، وفي إحدى مطالعاتي الميثولوجية، وجدت أن هذا الاسم هو اسم إلهة كنعانية، مثله مثل إيلات وغيرها.

مساء، التقانا الرئيس ياسر عرفات، قبل ذهابه إلى باريس بدقائق في مكتبه، كعادته، جاءنا بابتسامته المعهودة، ومن فوقها يطل بريق عينيه الذكيّتين اللعوبتين، آخر مرّة رأيت فيها أبا عمّار، كانت في بدايات حصار بيروت، في إذاعة الثورة الفلسطينية التي كنت أعمل فيها، حدّقت في كتفيه اللتين ناءتا بأثقال زمنيّة لا تحصى، كم مرّ في كمائن أعدّت له، ثم خرج سالماً منها، ناضل وحارب ولعب وتكتك، وكم حملت هاتان الكتفان من آلام شعب وأحلامه، مأساته كلّفت قرنا من الأحداث والحروب والهجرات، وسلسلة لا تنتهي من التضحيات.

لضيق المكان، جلسنا متراصّين، أبو عمّار جلس على طاولة صغيرة كانت موضوعة في وسط المكتب، ورفض أن يأتوه بكرسي، في هذه الجلسة القصيرة، قال أبو عمّار: إن باراك لا يخيفه ببجاحته وعنجهيته وعنفه مطلقا، وإنه ليذكره بصموده عام 82 في بيروت، حيث كانت هناك قوة عسكرية هائلة، تقصف من السماء والبر والبحر، ولكنها لم تثن من عزيمة المقاتلين ولا من إرادة القوى اللبنانية والعربية آنذاك. بعدها، التقطنا صورة تذكارية مع الرئيس الذي غادرنا وترك في نفوسنا أملاً بالانتصار.

ليلا، وقرابة الساعة الثانية عشرة، اشتد القصف في محيطنا، محل إقامتنا فندق قريب من مستوطنة «بيت إيل» في رام الله، والمستوطنون يتصفون بعدوانية غير طبيعية، وهم أكثر بشاعة من الجيش الإسرائيلي نفسه، ولا يتوانون في الإقبال على الإجرام والقتل وسفك الدماء، هذا ما شاهدته ولمسته في كل مكان من أرض فلسطين.

خلال لحظات القصف، كنت في غرفتي، بابها كان مفتوحا، لمجيء بعض الأصدقاء، من بينهم الشاعرة المغربية وفاء العمراني التي اتفقنا أن تقرأ لنا شيئاً من جديدها الشعري، في تلك الأثناء، سمعت صوتا في الخارج يقول بإطفاء الأنوار، لكن لا أعرف لمن يتوجه الصوت، تحوّطاً للأمر، أطفأت النور، وأطللتُ من النافذة، لأرى شبان قوات 17 التابعة لمنظمة فتح في سياراتهم الجيب وهم في حركة غير عادية، انطلقت السيارات من خلالها تجاه أمكنة أجهلها، في هذه اللحظات، تذكرت حصار بيروت الذي عشته بكل فصوله التراجيدية، لكأن التاريخ يكرر نفسه ومع الفلسطينيين بالذات الذين اعتادوا على حياة قلقة مشوبة بالصراع مع عدو ماحق يعيش على الخيال الأسطوري.

في اليوم التالي، وكان التقويم يشير إلى السادس من الشهر العاشر لعام ألفين ميلادية، عُدّت العدة، لذهابنا إلى «بيت لحم»، لقد تغيّر البرنامج كلياً، كان من المفترض أن نزور القدس القديمة والخليل وجنين وغزة ونابلس، لكنّ الأوضاع الملتهبة لم تسمح بذلك، فالجيش الإسرائيلي على أبواب المدن وفي مفترق الطرقات، مستعر ومدرّع، والمستوطنون أكثر جاهزية في تخطي الخطوط الحمراء، ولهذا، في طريقنا إلى بيت لحم من رام الله المغلقة منذ أكثر من خمسة أيام نتيجة الإضراب، سلكنا طرقا ملتوية، لتفادي السعار المعلّب الذي يمكن أن يدفعه المستوطنون إلينا في أية لحظة.

في طريقنا، نمرّ في قرى صغيرة، أليفة وبريئة، ولكنها معرضة في أي وقت للدمار، بحجة أنها تخبئ الفتيان من عشاق الحجر.

إذن، هكذا يهدهدنا الباص في أزقة تحتضنها أشجار الزيتون واللوز حتى نصل إلى مدائن معروفة يقطن التاريخ في حجارة منازلها، في منطقة حلمية، تجمع على التوالي بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور، هذه المدائن لا تنسى، منها نستطيع أن نرى قبة القدس، فالقدس على مرمى وردة، كما قال الروائي يحيى يخلف في حفل افتتاح المهرجان، إنها مدن شاعرية، مغلفة بالحكايات والأشعار، وتصقل صخورها الأزمان، مثل «مغارة الحليب» و«حارة التراجمة» و«معصرة الزيتون» بعد أنْ نقطع مدينة «بيت جالا» التي يرمي الجمال عليها ملاءة شفيفة، نصل إلى قلب التاريخ، حيث مدينة «بيت لحم»، التي يعود تاريخ إنشائها إلى 3000 عام، وهي تقوم على رابية مرتفعة، تحيط بها التلال المائجة، هنا، بغتة، يسطع الخشوع وينبثق الجلال فوق هذه المنحدرات والوديان، تشعر أنك في برهة البدايات الأولى للتكون، في موضع يكون الله قريبا من كل شيء، ضياء باهر يحيط بالمدينة، فتحسب أنك في الصلوات والترانيم والدعاء الذي يسبغ على المواضع أبهة روحية تجعل من الكائنات قطعا نورية، تحلم بالميتافيزيقيات وبالسلام المصفى.

ها هي إذن كنيسة المهد، وعلى جانبها تنهض منائر ساحرة لمسجد الخليفة عمر بن الخطاب الذي زار بيت لحم كمبعوث للنبي محمد «صلى الله عليه وسلم»، حيث صلى في المكان الذي يضمه المسجد حالياً، بني المسجد عام 1860 وتم ترميمه عام 1954، وهو يمثل رمز التسامح الذي يسود بيت لحم، لأن الأرض التي شيد عليها المسجد قدمت كهدية من الروم الأرثوذكس إلى المسلمين، الشاعر رئيس بيت الشعر في فلسطين، المتوكل طه، يقودنا إلى المقام الجليل، حيث كنيسة المهد، أو المغارة المقدسة التي ولد فيها الطفل يسوع، ننزل درجات رخامية ملساء عتيقة، فيتلقفنا الأدلاء شارحين أهمية المكان، الذي نحن فيه، ثمة حجاج وافدون إلى المكان ينتظرون دورهم، وثمة قساوسة ومطارنة وشمامسة بثيابهم الكهنوتية يشرحون بالعربية والأجنبية القصص القدسية للوافدين، وتلتمع هنا وهناك مباخر فضية وشمعدانات مذهبة ومرايا بارقة تعكس أخشابا لأيقونات مليئة بفصوص حمراء وخضراء، تتموج بتشظيات فيروزية وتقابلها هالات شموع مخروطية، تلقي هي الأخرى بظلالها المائجة فوق كرات نحاسية مبهرجة، كأننا هنا في كرنفال من الشعاع، أو في بؤرة النور السحري، وهذه البقعة الصغيرة المسورة أمامنا هي المهد والموضع الأول، الذي وضعت فيه مريم العذراء يسوع المسيح بعد أن هاجرت من الناصرة صحبة يوسف قبل ألفي عام، وها هي تتصادى التراتيل وأدعية الرهابنة تحت سقف هذا المكان المنيف.

بعد جولة تفقدية في محيط المكان وجواره، نأنس إلى خبز بيت لحم المخبوز على الصاج، وإلى لحم بيت لحم الذي لم نأكل ألذّ وأطرى وأشهى منه بعد أن حضر في الأكلة الفلسطينية المعروفة بـ«القدرة»، كان الطعام ساحراً، خصوصا إذا طُعّم بمُلَح وطُرف وتفكهات من أصدقاء جميلين مثل المنصف الوهايبي وطاهر رياض وزهير أبو شايب ويوسف عبد العزيز وجهاد هديب.

في الباص العائد إلى رام الله، أصغي بمتعة إلى حكاية بوليسية يرويها إليّ الشاعر المغربي صلاح بوسريف، عندما كان يدرس في بغداد، وكيف فرّ ذات ليل بأزياء متنكرة وباسم مستعار من العراق

تاركاً كتبه وحاجياته هناك، ناجياً بجلده من سجن وموت مؤكدين من قبل المخابرات العراقية التي كانت تحاول أن تدفع به إلى الجبهة العراقية – الإيرانية لحمل السلاح، فيقول لهم أنا جئت إلى هنا لكي أدرس، والنظام المغربي يحرم على المتواجدين خارج المغرب حمل السلاح تحت أية غاية.. لكنهم يأتون إليه مرة أخرى ويقولون له: لماذا تربي هذه اللحية، هل أنت من جماعة الخميني؟ فيجيب: هل كان ماركس خمينيا بلحيته تلك؟ فيجيبونه حازمين، إذن أنت ماركسي.. وهكذا دواليك.
وقبل أن نصل إلى رام الله، يقول لي صلاح: أنا المغربي، هكذا خرجت من العراق، فأنت العراقي، كيف كان معك الأمر؟ فأقول له: حكايتي حكاية، وليست لها من نهاية مع النظام العراقي.
قبل عودتنا بليلة، زرنا مجالس عزاء لشهداء، أحدهم كان في الثالثة عشرة، وآخر كان عريسا لم يمض أسبوع على زواجه، وثالث كان شاباً ضمن صفوف الشرطة الفلسطينية، التي سقط لها العديد من الشهداء.. مجالس العزاء كانت كبيرة وتجرى في الساحات العامة، كلما نظرت إلى فتى يافع في بداية ربيعه الثاني، أحزن وأصاب بالداء، وأقول في داخلي ينبغي أن يتوقف هذا المسلسل الدامي، مسلسل أن يكون هؤلاء الأطفال الذي يهبون في خدمة مجالس العزاء مشاريع شهداء للمستقبل، شهداء في حرب، ميزان قواها غير عادل، حيث الصدور المفتوحة والقبضات المشدودة أمام نيران فوهات المدافع والدبابات الإسرائيلية التي تحصد دون تمييز منابع اليفاعة، من هناك نمضي لنشاهد مسرحية مشعرنة، أدتها إحدى الفرق الفلسطينية في مسرح بديع متقشف في السينوغرافيا، نرى محمود درويش الذي أجّل سفره إلى باريس لغرض الفحوصات الطبية، نسأله: متى تسافر إلى باريس؟، يقول: «عندما تسافرون أنتم»، كان يأتي يومياً إلى الفندق الذي كنا نقيم فيه في رام الله ليسهر معنا ويضفي بحضوره بُعداً آخر للجلسة، آنها ينشُط الحوار وتُقترح المشاريع وينهض الشعر متوثبا في حضرته، في حضور خادم الغياب ومريض المشتهى، كما عبر في أحد الأبيات الشعرية من «الجدارية».

ليلاً، تصلني مؤونة سائلة، فهنا لي أصدقاء كثيرون، عاشوا معي الشتات والمنافي، لي زملاء عمل في الصحافة والمجال الإعلامي الفلسطيني، الذي عملت فيه طويلاً منذ أيام بيروت في نهاية السبعينيات، وثمانينيات دمشق وقبرص، ثم انقطاعي عنهم في مطلع التسعينيات، وها أنذا أراهم الآن في وطنهم، إنهم الآن في الوطن، وأنا معهم في منطقة الحلم، منتصف الليل، نجتمع في غرفتي، لنقضي السويعات الأخيرة وسط هذه المرتفعات الحالمة، مائدتنا الدائمة هي الشعر، مائدة طويلة ولا تنتهي والطاعمون هم الشعراء.

---

*شاعر عراقي يقيم في لندن.

ما أجمل غضب الأبرياء!

وفاء العمراني*

بكل ما فيهم من نُبل الألم وأريحية الشعر وصدق الجرح، يحقّني الأصدقاءُ في «بيت الشعر الفلسطيني» بدعوة لزيارة الأرض والمشاركة، شعراً، في «الملتقى الشعري الفلسطيني الأول». دعوة– حظوة رقصت جراح القلب، وهللت، في وجل النزر دمائي.. وقبلها كان القلب قد أراق بعض نبضه السري على صفحات «الشعراء».. أخيراً! هل حقاً سأحظى برؤية خالدة للقدس، رام الله، بيت لحم.. أو أي شبر من فلسطين.. لحيظات منذورة للأبدية ضجت بها أحلامي منذ الطفولة. وكبرت وكبرت في النبض، بعيداً عن قرقعات الحماسة التي هو خلو منها شعري.. لحيظات عشت، زمناً، بعد الدعوة أترقبها كأنها زمن غير الزمن.. وانقطع الاتصال وكادت ألاّ تتحقق وكدت ألاّ أحظى.. غير أني حظيت بجهود «بيت الشعر»– بيت الأصدقاء، وطريقة الصديق المتوكل الخاصة في الاستنفار.. حظيت بشرف تقبيل الأرض التي ما يفتأ يباركها الدم والعشق (وجها قدرها المتجدد)، أرض الوجدان والذاكرة والرمز، أرض محمود، بل قلبه الخصيب الجريح، قلب الكنعاني الذي يأبى أن ينبض بغير العشق والفجر كأرضه..
صحيح هي دعوة وجهت لعدد ونوع من الشعراء والنقاد، غير أنها نفذت إليّ إشارة شخصية من نسغ تلك الأرض لتلقح الحفية والحفية معاً فيّ.. وتعود بي الذاكرة عقدين ونيفاً وراءً، إلى ربيعي السابع عشر حين حصلت على البكالوريا، وفي غمرة بهجة والدي بي سألني: ماذا ستفعلين بعد؟ أجبت على الفور بعفوية وثقة: سألتحق بفدائيي فلسطين في لبنان! فغر فاه، فأردفت: أقصد سأتابع دراستي في الجامعة الأمريكية ببيروت.. يومها عرف والدي مبتغاي وصادره على نبله، وكاد مضطراً، يورطني على صغري في مشروع خطوبة فاشل حتى يضمن بقائي.. غير أنني اخترت زواجاً من نوع آخر، زواجاً شعرياً بامتياز ونضالاً ثقافياً متفانياً، لم تكن فلسطين، كانت الكلمة ما قدمت إلى الآن عقدين ونيفاً من صباي وشبابي فداءً لها..

الرائحة ذاتها تعفر ذاكرتي، اللحظة، رائحة تلك اللحظة، تلك السنة..
أشرتم أيها الأصدقاء فلبّيت –على ما لم يكن لتسمح به ظروف بيتي بتاتاً في ذلك الوقت بالذات– لبّيت حباً، فتحملوا حبي، بعض غمر المغرب ونبضه بكم ونحوكم.. واعذروا إرباكة اللقيا التي جعلتني أخلط الأسماء وأنادي بيحيى ويوسفاً.. اعذروا فرح اللقيا التي قدر لها أن يتزوج فيها الدمع بالدم، إذ تندلع انتفاضة الأقصى قبيل وصولنا بيومين أو ثلاثة.. وتحرصون علينا أكثر من حرصكم على أنفسكم وذويكم، وتحتاطون، بلياقة وكياسة فائقتين وقدرة رهيبة على بث روح المرح والدعابة، قدرتكم على مواجهة الموت، بل والاحتفاء به.. نُصرّ نحن أكثر على الحضور والمشاطرة في تلك الظروف.. ومنذ عمّان، يُقْضَمُ الفرح الأثير قطعة فقطرة، حين لم يُسمح لبعض الأصدقاء النوعيين بالدخول بسبب عدم الحصول على «التصريح اللعين»..
يأخذ زهير ما تبقى منا في رحلة الجسر من عمان إلى رام الله، ببشاشة تقاطيعه وقلبه، بأريحية حكمته ورحابة صدره وشعره.. يتحمل الكثير ويحفني أكثر، يهوّن الرحلة ونظرات الاستفزاز والتوجس المنبعثة من روبوطات جُبلت على التقتيل أحقر ما يمكن أن تستثيره فيك نحوها هو «الشفقة»، والشفقة أحقر العواطف على الإطلاَق.. حتى الكراهية، لو تستحقها هذه المخلوقات القذرة المسماة جنود إسرائيل. مدججون ومذعورون معاً، ما أروع المفارقة وأغباها، وسط كومة الأسلحة التي يتخفون وراءها، يمكن أن تتبين وجوه شباب في ريعان ومقتبل أعمارهم المهدورة والمصادرة في أقفاص الحقد والضغينة والغدر.. ماذا يعرف هؤلاء الشباب والشابات عن العالم الخارجي؟ عن الحب والصداقة والحرية والإبداع.. وُلدوا من حقد وأنشئوا على حقد، وتناسلوا حقداً.. تستفزني الجندية الشابة (غبية كانت، متوسطة الجَمال وغير نظيفة تماماً) تشير عليَّ (إليَّ) أن أنتَظر على الكرسي أمامها حتى تفرغ من إغاظتي بإكمال ميوعتها بمكياج في مستوى رداءتها، تومئ أخيراً بالالتحاق بشباكها، فألتحق بجارتها الهادئة التي قامت بعملها في صمت مريب؛ بينما الأخرى تنبح وتعوي «هل هذا زوجك؟؟ من معك؟ لماذا أتيت؟» أتجاهلها وأترك للأخرى فن الرد عليها «شاعرة من المغرب» ولا تنبسان بكلمة، ماذا تعرف كلتاهما عن المرأة العربية المبدعة المستقلة الناضجة المسؤولة الواعية، سيدة نفسها واختياراتها ومواقفها؛ بالأحرى تحركاتها؟!! يا لتخلف هذه العقلية وضيقها، وزيف حضارتها، زيف قُفَّازِها الذي لا مهمة له سوى مواراة سوءات الأيادي الملطّخة..
وتتوالى سلسلة الاستفزاز والإهانات المغلّفة والصارخة من إنزال من الحافلة وتفتيش وتفتيش تأكيدي بالعصا والقفاز. بينما من يحرس مدجج إلاّ من هلعه.. آه لكم تؤذيني الرايةُ المدنسة فوق ظهر هذه الأرض المقدسة، حتى المشروب الذي سيُطفئ عطشنا المضاعَف، تصادره من حنجرتي الحروف العبرية على القنينة، مع أنني أعرف أنه من خيرات هذه الأرض وعرق أهلها.. لكن ماذا لو اتحدنا حقاً في مقاطعة جميع منتوجاتهم وحليفهم الطاغي أمريكا؟؟
تؤلمني مشاهد المضايقات والتعسفات المجانية التي تستهدف العربيّ في أرضه.. شبابٌ عرضة، كل لحظة، للإيذاء والتعسف وتمريغ الكرامة.. وأنا عائدة إلى عمّان وحدي مع ركّاب الحافلة ليلاً، يوقفنا للتفتيش والتفتيش والتفتيش للتأكد.. أمامي طالب جامعي، واضح ذلك من كومة الوثائق التي يحملها

بزهو وحرص بين يديه، يختاره الجندي اللعين، الذي لم تخف وسامته بشاعة روحه، دون غيره: انزل.. انزلْ هويتك خَربانة، منزوعة .. وينزعها.. ونتأخر صامتين ساعتين لتكتمل المرحلة الذليلة ضاجّين إلا من صمت ذلك اليافع الذي احتفظ بمصيره.. تؤلمني أكثر ملامح الانفراج على أسارير الجندي وهو يفحص جوازي المغربي.. أنا عربية وينالني ما ينال العرب هنا.. قلبي مع ذاك الشرطي الفلسطيني الذي يضطر «لمقاسمته» الموقع والمكتب والإجراءات.. أين فلسطين الدولة إذاً؟ أينَ المتحرِّر هنا إذاً؟؟؟ لستُ أرى إلا بطشاً وطغياناً وجبروتاً، حيال عُزَّل إلا من إيمانهم.. أين هي أوهام السلام والتعايش والاحترام؟؟؟ في قاموس الفلسطيني وحده له محالة.. في الجانب الآخر، تصرخ القذارة.. آدميين، آليات حاقدة وخائفة لأنها تدرك جيداً أنها مغتصِبة.. مغتصِبون يخيفهم اغتصابهم، وهذا قدرهم.. هيهات أن تصافحهم يدٌ أبيّة.

نصل إلى سامي ونضال الذي يمرق بنا وسط حشد من الأجساد الفتية الغاضبة.. يهيئون لمواجهات المساء، لا شيء سوى حجارة وقلوع وقلوب باسلة.. «يا الله ما أجمل غضب الأبرياء»، يخيفون الموت بإقبالهم وبسالتهم.. ما أروعهم وما أصغرنا حيال بطولتهم.. وها هي أسود رام الله الأربعة وسيوفها الطافحة غضباً وشجاعة تُهلل.. نصل منطقة اللقيا وفرح اللقاء ليمتزج الدمع والعناق، ونقتسم أول رغيف فلسطيني.. صحيح ألغي الشعر ومهرجان الشعر في فلسطين، لكننا توحدنا حيال أروع القصائد وأقوى الملاحم: «ملحمة الشهداء».. توحّدت جراحنا في فندقنا برام الله – البيرة تحرس مُفترقه ليلاً، بواسل من قوات الـ 17 على شراسة مرآهم، هم على درجة عالية من الأخلاق والطيبة والاحترام، وكدنا لا نغادره.. لكننا نصر على الانفلات والتسلل ليلاً: غسان، زهير وأنا نحاور الشوارع ونحيي الكواسر الساهرين في جنباتها على حياة من فيها، ونألف صوت الرصاص تلك الليلة، يا لقدرة الإنسان على أن تحيا المشاعر بنقيضيها وبالقوة ذاتها!! يأخذنا غسان إلى خلوته – التلة لنطل على القدس من شرفات قلوبنا هناك، كاد يقفز قلبي مني إليّ.. ما أجملك يا قدس، وما أبهى سماءَك وأقرب نجومك..

تبدو لي العناصر هنا غير العناصر، والمادة غير المادة، مثلما المشاعر غير المشاعر، أقوى وبَلا حدود، كل شيء شفاف وصاعق.. أهي المواجهة اليومية للموت، تعلِّم وتكشف عن مخبوء الطاقات؟!

نعود مثلما خرجنا، نحيي شجاعة حراس الليل البواسل ويقظتهم، لم يطيلوا النظر إجلالاً للمرأة في المقعد الخلفي للسيارة، نظرة واحدة فاحصة وخاطفة كانت كافية لأن يفسحوا لنا، ويُشيروا في لطف، علينا بالرجوع، الوضع لا يُطمئن، نعود نحن إلى الفندق، لكن غسان لا يتمكن من العودة إلى بيته، أرى من نافذتي التي قضيت بها باقي الليل إلى الصباح سيارته تعود إلى الفندق.. وليلةً أخرى، يُصر جنوننا الشعري على أمسية نختلسها وسط القصف فنسمع شعرنا لبعضنا ونقرأ على إيقاع الرصاص ونبوح: هاشم، غسان وأنا وبعض الأصدقاء الشعراء التحقوا بسهرتنا صدفة.

صباحاً، تهدأ الأجواء ويختفي حراس الأرواح كذا خنّاقوها، وكأن شيئاً لم يكن، تفتح بعض المحلات نصف أبوابها ساعةً للتبضع، حليب الأطفال وخبز وبعض الأغراض البسيطة، أما ما تبقى من احتياجات، فلم أدر كيف تصل إلى البيوت، عساه حسّ التضامن العالي للفلسطينيين. حكى لي صديق هناك كيف وزع طَماطمه في رمضان الماضي على أربعة بيوت حيث شح الحصول عليها، ربعٌ لكل بيت أو لكل

«فتوش» إفطار ذلك اليوم.. شعب بهذه المشاعر، بهذا التكتل، بهذه الطيوبة، كيف يقهره غير الخذلان؟ بل لا يقهره سوى الذلة.. والخذلان.. القُرب قبل الغُرب.. آه يا عرب..
تهدأُ الصباحات فأتسلل للتجول في شوارع رام الله الخاليَة، تصادفني سيارة المتوكل الحكومية، يأمر السائق المقاتل بالتوقف المفاجئ، يهرع إليّ ليضعني بداخل السيارة ولا نتكلم!
تهدأ الصباحات وتحملنا السيارات في زيارات إلى بيت الشعر، المبنى الهادئ الأنيق أناقة الشعر، وإلى بيت لحم وكنيسة المهد، عبر الطريق الالتفافي، ومشاعر ذلك اليوم شديدة الخصوصية، أو إلى المستشفيات ويا لبشاعة ما شهدناه هناك.. جَنّبْه يد الطغاة ورصاصهم الهادف، كل أنواع المحظور من الرصاص يبسطه مدير عام مستشفى رام الله، حيالنا، منزوعاً لتوّه من أجساد الأبرياء أو جثثهم.. (بمجرد ما نبش ظفري المطاطي منه.. سقطت القشرة المطاطية لتكشف عن وحشية الأكذوبة).. أو إلى عائلات الشهداء وتلك مآس أخرى.. طفل يستهل عقده الثاني، وعريس في اليوم الرابع من زواجه يزف ثانية محمولاً هذه المرة ولمّ يجاوز ربيعه الثالث والعشرين.. وأب لثلاثة أطفال أمهم حامل بتوأم لم يقفل بعد عقده الثالث.. تصرخ بنا أم ثكلى ذهبنا لعزائها ومواساتها، قبل أن نلج مدخل البيت، نتالي والصديقة الفلسطينية منيرة إلى حيث النسوة، أما الرجال، فيقدمون أو يتلقون العزاء خارج المنزل وتحت ما نُصب لذلك، كان يربكنا خجل شديد من مهمتنا، كيف سنخفف عنهن هول المصاب، بأية كلمات.. وأشعر بالضآلة.. ونحن نغادر بيت تلك الثكلى، طلبت من صديقتنا الفلسطينية أن تقول لنا بالحرف: «لما تروحوا على بلدانكم، كولوا لحكوماتكم وشعوبكم إنا ما بدّنا بس عزا، بدنا سلاح»!
لأول مرة –واعذريني يا «أروى– أشعر أن هناك مشاعر في نبضي ومسامي وكياني وكلي بأجمعي، تكبرك أنت جذور حياتي، أنت التي انتظرتُها دهوراً ومرارات ومآسي ومحاولات رحيل متكررة خذلني فيها الحسدَ، لا لشيء إلا لأنه كان مؤمناً وراغباً في مغامرة حًلمكِ الشهيّ ووضعكَ العسير الذي أدناني من لذاذة الموت مرات أنا وأنت ذات يوم من نوفمبر 1998.
لأول مرّة أواجه في عيون الثكالى وأسرة الجرحى ما كان يستحق فيضَ مشاعري ومجانينها التي ضاقت عنها قلوب العشاق في دربي.. وما كنتُ أتصدر غيرك أقدر.. اعذريني يا ابنتي، وددتُ الشهادة هناك، وأنا عارفة بأنْ ليست لك مثل قلبي فيئاً، وَغدك معي حُلماً..
نعم، طلبتُ الشهادة وقرَرتُ أن أزور –لحظتهاَ– القدس، وليحدث ما يحدث، بل ليته يحدث ما في البال ويتاح لي أن أقدم لفلسطين الغالي رخيصاً، أزمعت النية ليلاً ويسر بعض الأصدقاء ذاك صباحاً.. وأنا أضع قدمي داخل السيارة التي كانت ستقلني إلى القدس، وقد أتت منها (عبر الالتفافي) تواً، وفقط من أجل هذه المهمة، كل شيء مهيأ وقد استشرت محمود سلفاً وأخفيت عن المتوكل خاصة لمعرفتي بدرجة حرصه «الخانق».. لم لا، ولن أنسى مرارة الإحباط صبيحة ذاك الإحباط حين مَنَعتني أيها الصديق القاسي عنفاً وحين لم أخضع، لجأت إلى الحيلة، أعود إلى غرفتي لأجلب كاميرا تصوير نسيتها، لأرجع وقد انتهى كل شيء، كل حلمي القديم القديم.. الجديد، طُرد السائق والسيارة والحلم.. ما كان أقساك وما أقسى حرصك.. لستُ أقل من ذلك الطفل الذي ترك لأمه ورقة يقول فيها «إن بداخلي شيئاً قوياً يدفعني إلى الذهاب إلى المواجهات.. سامحيني يا أمي!»..

نعم، ذهبتُ إلى فلسطين ولم أجئ... حقيقة لم أجئ، أنا غيري بعد فلسطين عن قبلها.. صحيحٌ مكثت طويلاً عاجزة عن الكتابة من هول وبشاعة وفظاعة وحقارة الأنذال الرعاديد! وحيال نبل وشجاعة وقوة وصبر الأبرياء، بل الأبطال الشامخين، الأفذاذ في كلِّ ما يُصدرون أو يصدرون عنه، رائعون باتحادهم في كل شيء، كل ما هو جوهري، أما العرضي، فللعارضين.. هناك عاينت فرادة الفلسطيني واختلافه عن الآخرين، الفلسطيني العادي هناك غير عادي بالمرّة..

أعرف أنني لن أكتب فلسطين إلاّ حبّاً، والحب أنبل مشاعر الكون وأيضاً، وجه الموتِ الآخر.. لأنني أعرف أن من يستميتُ من أجل أرضه يموت من أجل قلبه..

هكذا هم الفلسطينيون الأبرار، يستحقون دائماً حبّنا . عن الجميل أحكي، عن النبيل القصي والعميق في روح الفلسطيني أحكي، عما لم تقتضه فيَّ صداقةُ المذيع التلفزيوني من مشاعر عُليا، أحكي، أما البشاعة، فصورها على القنوات تُغنى وإن كانَت أقل وقعاً من الواقع بكثير. وأما الشعارات والتحاليل الجوفاء ومدارات الخذلان، فلها خطباؤها المفوّهون.. لستُ سياسية وما ينبغي لي أن أكون.. أنا مجرد شاعرة..

فتحية للشعراء في بيت الشعر في فلسطين

تحية للروائي الذي أضحكني في ذروة بكائي

تحية لشرفاء فلسطين الأبرار، للمقاومين حتى النصر أو الشهادات والتحية التحية لسيدات فلسطين الشامخات أبداً..

قلبي معكم ودمي فداؤكم.

الدار البيضاء، فجر 19 ديسمبر 2000

---

*شاعرة مغربية تقيم في المغرب.

الألم في إناد من الصبر

جهاد هديب*

مشاهدات من الأرض
التي تشتعل بالدم والأرجوان

الشهداء وحدهم يكتبون الشعر:
سبق عبورنا إلى هنا بأيام أن زار الإرهابي شارون حرم المسجد الأقصى، وكي تمحى آثار دنسه، كان لزاما على الشهداء أن يغوصوا أكثر في التراب الفلسطيني، ويصيغون بلادا وفقا لإرادة تتدفق قوية من حياة ينبغي أن تكون غير مستحيلة بل عادية إلى حد أنها نظيفة من الأعداء، فما كان لأحد منا أن يخلو من توتر أو قلق في تلك الصبيحة التي لم تفارقها صورة الطفل محمد جمال الدرة فيما ترتجف روحه من وابل رصاص الاحتلال ثم ليسقط مثل عصفور ميتا في حجر والده.
والهواتف التي جاءت من هناك، لم تكن مطمئنة، غير أنها نقلت إلينا، نحن المجتمعين في بهو فندق المحيط بعمان منذ التاسعة صباحا، أنه ما من سبيل إلى إلغاء ملتقى فلسطين الشعري الأول الذي يفتتح مساء هذا اليوم الثاني من هذا الشهر.
لم يمنح الناقد صبحي حديدي القادم من باريس ولا الشاعر قاسم حداد القادم من البحرين إذنا من سلطات الاحتلال بالهبوط في قطعة من الحلم.. وهو الذي ما انفك يردد: «أود زيارة أخي في السجن.. وهل ثمة سجن من دون سجان».
قرابة الحادية عشرة، تحركت بنا السيارة: رسمي أبو علي، وسيف الرحبي، وهاشم شفيق، وطاهر رياض، ومحمد الجالوس، والمنصف الوهايبي، وأنا في سيارة أخرى، كان ناصر يوسف مرافقنا من «بيت الشعر» ويوسف عبد العزيز ونتالي حنظل الفلسطينية الشاعرة التي تكتب باللغة الإنجليزية.
هبطنا جبال ناعور باتجاه الغور حيث جسر الملك حسين (اللنبي)، فيما نسمع من الراديو أن رام الله،

المدينة التي سنقيم فيها حتى العاشر من هذا الشهر، مسرح لاشتباكات دامية، فقد بلغت حصيلة الشهداء حتى منتصف الظهيرة ثلاثة شهداء.. يسأل أحدنا الآخر: هل أعلن عن إغلاق للجسور؟ هل أغلقت غزة؟ هل قطعوا أوصال المدن الكبرى في الضفة؟ كانت الحياة قد عادت إلى أغنية سبعينية انطلقت بصوت المغني أحمد قعبور منذ بيروت الحرب الاهلية: «يا بطل الضفة لا تهدأ أعلنها ثورة.. حطم قيدك.. اجعل لحمك جسر العودة».

وصلنا إلى الجسر ولم يكن أحد هناك في صالة الانتظار، وناقلو الحقائب أفادوا بأن الحركة جيئة وذهابا عبر الجسر أقل منها بالمعتاد بكثير.

هنا تفرقنا، فقد ذهب هاشم شفيق بريطاني الجنسية ونتالي حنظل فرنسية الجنسية إلى مكان آخر لعبورهم التقوا فيه مع جريس سماوي الذي سبقنا إلى هناك.

أنجزت الإجراءات الرسمية وذهبنا إلى الصالة المعدة لمغادرة الزوار والفلسطينيين إلى الجانب الآخر، ولم يكن الباب الذي يفضي إلى الباصات مفتوحا.

كنا قد تفرقنا لمرة أخرى، ذهب اليوسفي والوهايبي والرحبي من جهة أخرى كي يعبروا.

بقينا، رياض وعبد العزيز وأبو علي ويوسف وأنا، في تلك القاعة أمام الباب المقفل علينا.. باب ضخم وواسع، حديدي، لونه أسود قاتم، والحيطان في القاعة كلها رمادية، في أحدها باب زجاجي صغير يفضي بالداخل منه إلى السوق الحرة.

بدأ المغادرون بالتدفق إلى القاعة، بعد قليل، امتلأت الصفوف الأولى.. بمرور الوقت، كان التوتر يتصاعد فينا: طاهر رياض الذي لم ير فلسطين سابقا قال إنها لم «تزبط» معه حتى في المحاولة الرابعة، محمد الجالوس ظل على اتصال مع زوجته آمنة الحلو يخبرها ألا تشي بما أقدم عليه لأمه التي لم يخبرها بنيته عبور الجسر مرة أخرى في أقل من شهرين..

الشعر ليس مهما أن يقال، فهو يكتب على الأرض الآن، كان أبو علي يقيم استراتيجيته في امتصاص توترنا على هذا النحو، أما يوسف عبد العزيز، فحوّل ذلك إلى طرفة بدعم حقيقي من أبو علي الذي بدا كهلا يمثل أمامنا دور الحكيم ليعترف فيما بعد أنه كان يسخر، فهو معتاد على مثل هذه الأجواء.

كنت الأخ الأصغر بينهم، ولاحظت توتري امرأةٌ ضالعة في السن والعبور بين طرفي الجسر، فعائلتها انقسمت منذ زمن بعيد بين هنا وهناك، قالت لي: قد يطول الإغلاق لساعات وربما لدقائق، وقد لا تنفتح هذه البوابة أصلا.. لا عليك، ابق هنا، في آخر الأمر ينفتح الباب وتذهب طالما تصريحك في يمينك.

أبو علي تمناها زيارة للشعر فقط، لكن الأحمق شارون أشعلها ثانية، سيسقط عدد آخر من الشهداء، ما من شك في ذلك، قال أبو علي الذي أضاف: غير أن الأحداث لن تطول أكثر، فسوف تنتهي في باريس وسط أجواء تعزز من الحضور الدبلوماسي الفلسطيني عالميا وهنا على الأرض بمكاسب أخرى.. أن تنتزع شيئا من براثن هذه الـ«إسرائيل»، فإنك تنقذه من التهويد، لقد فعل أبو علي ذلك وهو ينقذ زجاجة العصير من نظرات يوسف عبد العزيز الذي لم يوافقه على ما ذهب إليه.

دعم أبو علي استراتيجيته المشار إليها ببعض ذكريات له عندما كان شاعرا فنضحك وينتبه إلينا الناس، يستنكر الشيوخ ويقاسمنا الشباب الضحك.

بعد قليل، جاءنا ناصر يوسف بنبأ عظيم.. حتى لو أن اليهود استمروا في إغلاق الجسر، لقد استثني وفد الملتقى من ذلك، لكن متى ينفتح هذا الباب، الله أعلم.

بيننا ملاك إذن، بالتأكيد ليس أبو علي أو يوسف عبد العزيز الذي لما سمع الخبر تأتأ كطفل، فطالبه محمد الجالوس بجملة مفيدة واحدة قلنا إنه طاهر رياض، بل طواياه المبيتة.

في آخر الأمر، انفتح ذلك الباب، قلت يبدو أنها «زبطت» يا طاهر رياض.. ندخل أرض الأرجوان من أول ما خطا المسيح بعدما مسح يوحنا المعمدان رأسه بماء الأردن المقدس ورفت عليه روح الله ثم حلقت عن يمينه.. ندخل من أريحا، أول القيظ وأول حبة حنطة جلبت الغزاة منذ فجر التاريخ بأقدام ملوثة بدم الأردن وما زالوا يتدفقون.

لا أعرف ما الذي نقل إليّ تلك الرغبة في مشاكسة شيخنا رسمي أبو علي، فسألت يوسف عبد العزيز عن طعم العصير في زجاجته، فقال بمكر إنها لذيذة، وحين جلسنا في مقعد واحد، رسمي أبو علي وأنا، بدا الرجل حاضنا أكثر زجاجته وينظر إليّ كأنما يقيم بيننا سورا لم ينهدم إلا حين قلت له إنك أكثرنا (فلسطينية – أردنية) فنحن ضيوفك على نحو ما، ولا يسعك أيها الحكيم أن تبقينا هكذا على عطش.

أعاد نظارته إلى أعلى.. قال اشرب إلى هنا فقط وإصبعه تشير إلى منتصف الزجاجة الكبير، وكان ذلك عندما بلغنا الجسر الخشبي ورأينا اقتطاعه من نهر الأردن، قال ثانية: اشرب إنه يشبه عرقا في ثوب أمك القلقة على صغيرها.

الآن، ما عادت المسألة مجرد عبور نقطة حدودية تفصل الأردن عن غيرها من الدول المجاورة التي نعبرها إلى عواصم عربية.. لقد استثير توجسنا، كان اثنان يطلان إلى تصاريح دخول راكبي الباص الذين ترجلوا منه بلا مبالاة، بينما انشغل آخرون بتفتيش الباص بحذر وروية.

عدنا إلى الباص وهبطنا منه على قرب من نقطة التفتيش الفلسطينية – الإسرائيلية، اقترب منا أولا جندي فلسطيني وفلسطيني آخر عرفنا بنفسه على أنه من المخابرات الفلسطينية، ساعدونا في حمل الحقائب وتولوا ترتيب الشؤون مع الجانب الآخر.

كان كل شيء حولنا مثيرا للاهتمام، تحديدا تلك الجبال في أول مسيرنا التي ابيضّت كما لو أنها أكوام هائلة من الملح تشبه إلى حد بعيد تلك التي خلفها منجم الفوسفات في المنطقة التي تفصل مخيم حطين عن الرصيفة، والفرق أن الأخيرة هشة، بينما تبين في جبال أريحا طبقات الصخر كأنها عروق الزمن.

تجمعنا كلنا لمرة أخرى، احتفلنا الواحد منا بالآخر كما لو أننا نلتقي من بعد غياب، قلنا بصوت عال: لقد نفذنا.. وتدفق التوتر والقلق مع العرق الذي «غلته» في أبداننا شمس أريحا.. فتقشرنا عن جماعة من الأطفال نقفز هاهنا وها هناك، ويريد الواحد منا أن يرى الآخرون ما يراه، فلا تكفّ العيون عن التجوال والأصابع عن الإشارة في ذلك الأفق الواسع والمكشوف الذي يبدأ من جبال عالية جرداء والسراب في أعلاها يرسم طيورا تتشكل وفقا لمزاج الصهد.

كانوا في انتظارنا: المتوكل طه ومحمد حلمي الريشة وغسان زقطان ومراد السوداني، شعراء «بيت الشعر» وآخرون كأننا نعرفهم فعانقونا، أيضاً.. كانت التحايا تختلط بأول البكاء.

أخذنا على عجل إلى المركز الثقافي في أريحا في موقع قريب من مركزها، أي دوار أريحا.. هذه المدينة

التي كان من الممكن أن أولد فيها لو ما وقعت النكسة عام 67، للعائلة فيها ذكريات لم أحسن نظمها في خارطة واضحة الملامح: الدوار، شارع عين السلطان، بيت فايز بيك حيث أشجار البرتقال والليمون، مدرسة البنات الثانوية في شارع آخر نسيت اسمه حيث أول مراهقة شقيقتي فاطمة.
هنا تحسست قلادة علقتها هي في صدري، كانت تخرج من غرفتي وتتوجه إلى بوصية -هذا الصباح- تذهب إلى دير قرنطل في جبل التجربة وتشرب من عين السلطان ثم تذهب إلى الأرض في الديوك التحتة التي بعد بيت فايز بيك إلى اليسار قرابة خمسمائة متر كي تتعرف إليها وإلى قصر هشام وشجر الموز يحيط به.. لم أحفظ الوصية جدا ولم أر من تلك المطارح سوى شارع عين السلطان ودير قرنطل ليلا الذي بدا موقعه ليلا بحيرة ضوء قيل إن في أعماقها دير قرنطل عند الإشارة إلى جبل التجربة فاحتفظت بخيانتي الصغيرة لنفسي.
وصلنا إلى مركز أريحا الثقافي، وقبل ذلك، تناهى إلينا أن اشتباكا يدور على مبعدة مئات الأمتار مع جنود الاحتلال، وأثناء ما كان المتوكل طه يلقي كلمته مرحبا، وصلت إليه ورقة صغيرة انكتب فيها أن الشهداء اليوم في أريحا وحدها صاروا ثلاثة والجرحى كثيرون.
كانت مقاعدنا قد قربتنا إلى بعضنا، نحن المشاركين القادمين إلى فلسطين، فاتفقنا أن المجيء العربي إلى هنا يتحول من ملتقى الشعر إلى ملتقى التضامن والشهادة على الذي يجري هنا.. اتفقنا ثانية.. الشعر ينحني أمام جلال الشهادة والدم الأرجواني الذي نراه بعيوننا.
من بيننا، وقف الناقد محمد لطفي اليوسفي، قال فصار شاعرا بل مثقفا يعي مسؤوليته تجاه لحظة تاريخية.. جمع الشعر والسياسة وفلسطين في أتون معرفي فلم أحب اليوسفي مثلما أحببته فيما ينطق بكلماته بصوت صريح أكثر حرية ويبلغ إلى الناس من منبره رسالة أدائية في الوقت نفسه..

شهداء وقصف ليلي بالصواريخ..
الأحداث تذكّر ببيروت السبعينيات
نغادر مدينة راحاب التي اسمها ما زال حيا وتراجيديا في شعبها لأمر ما يجدر بالتأمل والتي خبّأت عابرين في حجرها فتسبّبت بدمار أريحا.
لم نكن واثقين من الوصول إلى رام الله تماما، ذلك أن مناطق الاشتباك مع جنود الاحتلال يمكن لها أن تعيدنا من حيث جئنا.
كان أول ما رأيناه من انتفاضة الأقصى في أريحا بقايا الإطارات التي صارت رمادا والحجارة التي تغلق الطريق، والسيارة حملتنا جميعا وسارت بنا ملفوفة بعلم فلسطيني كي نتقي حجارة الصبْية، والسبب أنها تحمل «نمرة صفراء»، وحين غادرنا أريحا كلها ودخلنا في المنطقة «جـ» التي للاحتلالَ فيها الإدارة، والأمن نزع العلم، لأن أية دورية إسرائيلية لن تتردد في إطلاق النار على السيارة.
اختاروا لنا طريقا طويلا يسمونه «المعرجات» صعب لكن لا مجال للاحتكاك بجنود الاحتلال.. كان طريقا جبليا ووعرا ويزداد ارتفاعا كلما أوغلت السيارة فيه، ويزداد مشهد الجبال غموضا وفتنة.
طال الوقت بنا حتى وصلنا إلى «حزمة»، القرية التي في الطريق بين رام الله والقدس.. هنا عدنا إلى

مناطق السلطة الفلسطينية وكم كانت مطوقة بالمستوطنات، اقتربنا أكثر من القدس حتى مررنا في طريق يفصل جزءا من المستوطنة الغاشمة «معاليه أدوميم» أي «الجبل الأحمر» التي تطوِّق القدس كسوار من بنايات عالية ذات طابع عربي.
كانتا، البلدة والمستوطنة، قريبتين إلى بعضهما على نحو غريب، قيل لنا، من هنا يطلق مستوطنون النار على غير الآمنين من فلسطينيي أبو ديس، البلدة التي تقع خارج أسوار القدس والتي عرضت على الفلسطينيين عاصمة بديلة.
قال أبو علي: عاصمة تكاد تقع في بطن الوادي، قلت: «لماذا نقل الإله اليوناني (أطلس) الكرة الأرضية من كتف إلى أخرى؟ سيكون لعاصمة فلسطين مصير (أطلنطا)».
وقيل، أيضاً، يكفي أن تمسها بإصبعك أو «تدفشها» بقدمك على الأكثر لتقع في حفرة الانهدام التي تليها.. قالوا كلهم لا نريدها عاصمة لفلسطين، بينما لم نكن نعلم أننا في حقيقة الأمر لا نبعد سوى دقائق بالسيارة عن قبة الصخرة أو درب الآلام.
اكتشفنا ذلك حين عرفنا أننا وصلنا إلى أبو ديس من الخلف وأن في مدخلها الذاهب إلى القدس القديمة جنود احتلال يمنعونها عن القادمين من غير أهلها أو المزوّدين بتصاريح خاصة، وهم بدورهم منعوا مع تطور الحدث.
بعد أبو ديس، انعطفنا يسارا إلى مخيم قلنديا، فرفع العلم الفلسطيني ثانية، قيل: أولاد قلنديا «ما عندهم مزح، الطايح رايح والسيارة التي لا تتحدد هويتها الفلسطينية من بعيد قد تكون هدفا لوابل لا ينتهي من الحجارة». قيل، أيضاً، إن مستوطنا تحامق وجاء إلى هنا، فاضطرته الحجارة إلى الوقوف.. طرده الصبية وأشعلوا فيها نارا.. السيارة ذاتها كانت في آخر المخيم على أحد مداخله ونحن نغادره، أكثر من إصبع أشارت إليه.
عندما قيل: «لقد وصلنا إلى رام الله.. لسنا بعيدين عنها». ولم تكن إلا دقائق حتى كنا في مدخل البيرة. بدت شوارعها أكثر اتساعا مما هو متوقع، والناس سائرون في يومهم، وذلك أن موعد الإغلاق في الثانية عشرة لم يحن بعد.. في الطريق إلى الفندق، تناهى إلينا صراخ غاضب وإطلاق رصاص.. إذن وقع اشتباك ما حين وصلنا، كان تشييعا غاضبا لثلاثة شهداء دفعة واحدة.. ثلاثة قناديل ملتهبة تطوف بها الأكفّ في عتمة ظهيرة الاحتلال القاسية.. أدركنا ذلك ولم نعلم أن غضبا مثل هذا الغضب سوف يشعل رام الله طيلة هذا النهار، لكن اشتعل فينا حدس ما. مزيج من الدهشة والتخوف، بل الغبطة، أيضاً، على أنك هنا على الرغم من أنك لا تفعل شيئا حقيقيا.
توقف بنا الباص، لكننا رأينا جزءا من مظاهرة التشييع، فاختلفنا، هل ننزل ونلتحق أم نكمل طريقنا؟ والضالعون في الأمر قالوا: «رام الله غدا تشيع شهداء آخرين».. وأضاف الصوت بألم: «ملْحقِين.. شلال الدم بدا».
وها هو بالفعل لا يزال متدفقا ليخون التوصيف السياسي بأن قمة باريس سوف تنهي المسألة بمكاسب فلسطينية، وأن الأحداث ستتوقف وموسم الشهداء سينتهي.
لكن شهداء الأقصى ظلوا على موعد مع ربهم.. طاهرين تصعد أرواحهم بيضاء كسرب حمام نراه يصعد

من تلك الجبال العالية.. من قممها المغلّفة بالضباب والأسى.
في اليوم ذاته، وصل إلى حيث كنا، لتناول الغداء في مؤسسة عبد المحسن القطان الخيرية، صلاح بوسريف ووفاء العمراني بصحبة زهير أبو شايب.. بكت العمراني في لقاء حميم بإخوتها. قالت فيما بعد إنها لا تصدق أنها هنا.. بكت ثانية بعد يومين حين أجبرت على التخلي عن زيارة القدس القديمة بصحبة مراسل جريدة «الحياة الجديدة» الذي رشّحه للقيام بذلك رئيس تحريره حافظ البرغوثي.
مساء، توافد الشعراء والمثقفون إلى مقر إقامتنا: محمود درويش وزكريا محمد وحسين البرغوثي وفيصل قرقطي ووليد أبو بكر وعزت الغزاوي وأنس العيلة، بل ومهيب البرغوثي الذي ما يزال هناك.
لم يكن حديث الشعر في تلك الأمسية وكذلك الأمسية التي تلتها بذي بال، لقد سطت السياسة على الأحاديث الأخرى.. هاشم شفيق قال: إنه توتر يذكر ببيروت السبعينيات.. والصور التي كنّا نلاحقها في الفضائيات العربية لانتفاضة الأقصى جعلت إيماننا أقوى بصواب قدومنا إلى هنا، بل بمحاولتنا اختراق حاجز مجرد المكوث في الفندق.
صباحا، ذهب الوفد إلى عيادة الجرحى في المستشفيات، ومساء زار ثلاثة بيوت للعزاء. اكتشفنا أن الموت لم يكن قريبا إلى تصورنا، بل سطا عليه فعل الاستشهاد.. وفي الحقيقة، فأن يموت شاب بعد ليلة عرسه بأربع ليال، فهي كارثة حقا، وأن يسقط شهيدان ويجرح ثمانية في مغامرة اقتحام غير مدروسة لمعسكر احتلال هي، أيضا، كارثة.
يصعب عليّ الآن نسيان ذلك الشاب من غزة الذي ربما لم يتجاوز العشرين بعينيه المحمرتين ودمعه السيّال على شقيقه الشهيد، فيما يعض بأسنان قوية على قطعة القماش، ممسحة الدمع، ويتدفق الغيظ والإحساس بالعجز عن فعل يؤذي الاحتلال من كل أعضاء جسده، لآخرين كثر مثل هذا الشاب، ألا يدفعهم ذلك إلى مواجهة الاحتلال عراة؟
انتقل إلينا ذلك الإحساس بالعجز عن توصيف ما يحدث حولنا.. هل يصحّ أن يقابل طفل بحجر ومقلاع جنديا يدخل إلى معركة وشريعته تسلّحه بكل مبررات ذلك؟ نحن لسنا بشرا بالنسبة إليهم، بل إن قتلنا ليس محرّما في الأيام العادية، ودمنا مباح لهم عند أول احتكاك.. لقد سقط غير شهيد أثناء مروره أمام مستوطنة، كانت بينهم طفلة لم تتجاوز الثانية، فجّروا رأسها برصاصة.
لم تتوقف الأحداث.. مفرق الشهداء في غزة قبالة مستوطنة «نتساريم» الشبيهة بمسمار جحا كانت مذبحا لم يصب محمد الدرة ووالده فحسب بل الكثيرين.. الذي يغيظ أن الفتية يتقدمون بجسارة غير معهودة نحو الاحتلال بقمصان «تي شيرت» وحجر.
مع إعلان الجمعة يوم غضب، وبدعوة من القوى السياسية الفلسطينية، صار لنا أن نجهر بذلك.. كان ذلك مساء الثلاثاء، وبعدما التقينا بالقيادة السياسية الفلسطينية ممثلة بأبو عمار، الذي في حديثه إلينا، وصف شارون بالأحمق وحمّل «إسرائيل» مسؤولية الأحداث، فدخول ذلك الإرهابي إلى حرم الأقصى برفقة ثلاثة آلاف جندي مسلح هو قرار دولة وليس شارون وحده فحسب.. وفي الحقيقة، فإن المسافة التي تفصل شارون عن باراك ليست بعيدة، ولئن كانت يدا الأول ملوثتين بمجزرة صبرا وشاتيلا، فالأخير مجرم في عملية فردان وقاتل في عنتيبي ومثّل بجثة الشهيدة دلال المغربي بعد استشهادها

بسكين.
تلك الليلة، هرعنا جميعا إلى الشبابيك وتبودلت الهواتف بين الغرف المتجاورة.. قرابة الثانية فجرا، كنا نسمع انفجارات، واستمر ذلك حتى الثالثة والنصف، نسمعه بين حين وآخر.. كانت دولة الاحتلال مستمرة في قصف المنازل والممتلكات المدنية بصواريخ تسمى «لاو» لم نعهد لها اسما من قبل.. إنها، حقا، أجواء بيروت.. الحرب الأهلية، أكد هاشم شفيق هذا الشاعر العراقي المتورط بمصير فلسطين زوجة وموقفا إنسانيا.
وبدل الذهاب إلى بيت لحم صباحا عبر «درب الآلام» في عشر دقائق، استغرقت الطريق قرابة ساعة عبر «درب الإذلال».. هكذا سمينا ما يتعرض إليه يوميا الفلسطينيون في ذهابهم من مدينة إلى أخرى أثناء الأحداث.
الانتفاضة تستمر... الفلسطيني يتدبر شأن وجوده اليومي ببسالة الحق التاريخي..
مصيري يصرخ بي... طفت هذه العبارة الهاملتية على سطح الذاكرة وأنا أحدق إلى العذراء حاملة صغيرها كليم الله في كنيسة المهد.
هذا الإحساس واتاني أمام الأيقونة نفسها قبل عامين. حدث ذلك قريبا من المذود في عمق المغارة التي ضمت الطفل وأمه مريم من بطش هيردوتس قبل ألفي عام.. «الطفل في المغارة وأمه مريم.. وجهان يبكيان».
كان لهذه الاغنية أن تعيد إلى الذاكرة الشخصية تفاصيلها، أن يتحدث إلى ذلك الشخص الذي فيّ ما يشبه الهمس كطيف الملك والد الأمير هاملت فيما ذكره بمصير لا فرار منه.
قال لي الطيف: أنت من هنا، حدق إليه وإصبعه يشير إلى الصغير، لون البشرة، دكنتها، استدارة الوجه، العينان.. أنت من هنا.
وبالفعل، لأول مرة تذكرت أن البلدة التي انحدر منها والدي قبل الاقتلاع القسري والتهجير عام (48) لا تبعد في حساب الزمن سوى خمس عشرة دقيقة أو أقل، ولو أن الحياة قدر لها أن تسير دون منعرجات والأرض دون احتلال، لكنت مثلما كان أبي، فلاحا ذا بيت إلى حد أننا نشبه الآخرين تماما، وولدت مثلما هو على ذلك القرب من وجه المسيح، بل لعرفته من زمان وأدركت أنه ينتمي إليّ أكثر مما يبدو بعيدا عن الأيقونة الغربية.
منذ البداية، تأخذك الكنيسة بجلالها، الظلال غامضة وتكاد تتشرب تلك الأيقونات العالية على الأعمدة، ورائحة البخور والعتق التي أوغل فيها المكان تجعل لكل شيء هالته المقدسة.
عدنا ثانية إلى ساحة المهد، ثم أخذونا إلى مطلع شارع النجمة الذي يمر به مسار القداس مطلع الاحتفالات المسيحية بعيد الميلاد. صارت عيناني أكثر يقظة وأكثر شغفا بالصور.
بدا (النجمة) شارعا قديما بحوانيته التي جعلت من بيت لحم القديمة جزءا حيويا من اليومي والمعيش لساكني المدينة وأهلها. كان مجيئنا من الجهة الغربية، مررنا بمحاذاة حارة التراجمة ودرج السالزيان وكنيسة الروم الكاثوليك.. بدأت بيت لحم تتكشف عن مدينة في الذاكرة تحاذي دمشق القديمة وتحديدا بوابة توما وجوارها.. أفضيت بذلك إلى د. محمد لطفي اليوسفي فقال إنها، أيضا، تذكرني بمدن الساحل

اليوناني الجبلية بكثرة أدراجها التي تحمل أسماء العائلات وضيق شوارعها.
توقفنا طويلا أمام متحف (البد)، أي متحف معصرة الزيتون القديمة. لم ندخل لنرى ذلك (البد)، لكن الطراز المعماري للمتحف أخّاذ إلى الحد الجاذب للعين أن تتأمل تفاصيله.
انتهت بنا الجولة في بيت لحم إلى جامع عمر فساحة كنيسة المهد. ركبنا السيارة ثانية باتجاه بيت جالا.. تناولنا الغداء في النادي الأرثوذكسي ثم غادرنا هذه المدينة إلى رام الله ثانية.
لم يكن لبيت جالا وللحي المسيحي فيها تحديدا ليعبر هكذا كما لو أن المرء يمر بمدينة عادية.. بدت خارج النسق تماما مع أنها تكاد تكون امتدادا لبيت لحم وعلى تداخل في بيت ساحور.
شيء ما فيها له مفعول سحر وجذب واختطاف يجعلك تتمنى السكنى ها هنا وإلى الأبد في واحد من بيوتاتها القديمة. مدينة لها مذاق زهرة اللوتس الإغريقية.. تتذوقها فتصير لك بيتا وامرأة ومحرابا تصلي فيه وتفقد لعنة أي وطن.
بيت جالا.. المدينة الشرك.
ذلك كله قلته لغسان زقطان.. فرد بأنه، أيضاً، يخافها.. هي مسقط رأسه، وإن أخذته إليها، فلن تأتي إليه رام الله.
مساء ذلك اليوم، التقينا بالسيد محمود عباس مدير دائرة المفاوضات في السلطة الفلسطينية. قدّم لنا شرحا وافيا عن المسار الفلسطيني منذ مدريد عام (91).. ورغم أن الرجل بدا دبلوماسيا، غير أنه حاول إقناعنا بتحرير تفاوضي لفلسطين من بحرها إلى نهرها... كانت استراتيجيته تعتمد على عامل الزمن وعودة اللاجئين. ولعله، للحق، أن الرجل، أيضاً، عارف جيد بتاريخ الصهيونية ودولتها الإسرائيلية.
وفضلا عن الفشل الذريع الذي أصيبت به قمة باريس، تنامى إلينا، أيضاً، سقوط الشهيد مصطفى الفرارجة (22 عاما) وإصابة أكرم شعفوط (22 عاما) في شارع الكريمزان في بيت جالا، وهو الشارة الأهم بعد مغادرتنا بأقل من ساعة.
هما من مخيم الدهيشة، ربيب بيت لحم، ربما أرادا الابتعاد قليلا عن الغضب في المخيم.. ربما تسنى لهما أن يتحدثا عن سرّين صغيرين يتهامسان بهما. غير أن كل ما حدث هو رشقة من رصاص جنود الاحتلال أوقعت جسد الفرارجة فورا إلى الأرض وارتفعت روحه إلى بارئها.
أكرم شعفوط حملت إلينا صحف الصباح في صدر صفحتها الاولى صورتين له، في الأولى يركض إلى الناس لابسا (تي شيرت) أزرق وبنطلونا أسود ويده على صدره المبلل بالدم، وفي الثانية محمولا من أطرافه بين أيدي شبان الكريمزان في وضع غير مريح.
في الصورتين، حملت عينا أكرم هلعا من الموت الذي رآه يختطف منه صديقه في لحظة.
كان قتلا مؤلما، جبانا وبدم بارد وربما أعقبته ضحكات سخرية وتباه تشبه تلك التي يطلقها صياد متنفج أوقع بحمامة.
حصيلة الشهداء مساء ذلك اليوم كانت قد تجاوزت الثمانين.. يا الله، ألا يكفي كل هذا الألم ليقتنع قادة الاحتلال بأن المقدسات، والقدس تحديدا، خط أحمر لا مجال أبدا لتجاوزه؟ المسألة لم تعد كذلك ولم تعد، أيضا، مجرد فائض الحماسة أو العاطفة، لقد انتقلت إلى فضاء التاريخ، لذلك، كان لزاما كسر طوق

الجغرافيا إلى فضاء أرحب من ذلك.. لقد قدم شهداء الناصرة وأم الفحم دليلا أنصع على ذلك، وقلبوا بوصلة انتفاضة الاقصى باتجاه الحق التاريخي، إذ يقف في وجه الغطرسة.
هنا، يأخذ الصراع شكلا آخر يتطلب عملا منظما أكثر وخبرة في مقارعة من نوع جديد في الكفاح الوطني، خصوصا وأن في الأمر مسألة يصعب اكتشافها على الذين هم خارج أرض الصراع.. أي خارج فلسطين، فالعداء هنا والمقارعة يتخذان صفة الاحتضان والتداخل وليس مثلما هي الحال في السابق.. لقد كشفت لنا الأحداث أن الانتقال بالصراع من الخارج إلى الداخل بثقله الأكبر قد أسهم في خلق مرحلة جديدة مختلفة كليا ومنقطعة عما سبق العام (93)، عام أوسلو المشؤومة.
ثمة قناعة واسعة لدى أغلبية الفلسطينيين، شارعا ومثقفين، أن قمة عربية تعقد لن يكون لها أثر مباشر في واقع حياتهم، وهو جزء من قناعتهم بواقع التردي العربي على الصعد كلها مقابل ارتفاع في مجمل قوة الكيان الاحتلالي.. ثمة اتجاه واسع إلى فهم أكثر للعدو واشتقاق آليات عمل جديدة في مقاومة سعيه إلى استلاب كامل الأرض.. عدو قوي ليس من الممكن التعايش معه.
في ظل ذلك، سوف تستمر التراجيديا الفلسطينية والملمح التفاوضي الذي تسيطر عليه السلطة ليس الأخير في المرحلة الراهنة، فهناك الملايين من البشر الذين أمكنهم امتلاك وسائلهم الخاصة في البقاء رغما عن الاحتلال يتدبرون شأن يومهم ببسالة نادرة تأسست على الحق التاريخي في الوجود والأرض والطبيعة..
في بيوت العزاء، رأينا الألم يقترن بالعزة والدمع يجبلهما معا.. كل ذلك في إناء من الصبر.
النتائج التي جاء بها يوم الغضب بعد صلاة الجمعة الماضية أنعشت فينا الروح ثانية.. العلم الفلسطيني فوق الأقصى بأقل الخسائر الممكنة، بدا لنا أن تدخل المؤسسات السياسية للفصائل الفلسطينية، وتحديدا فتح وحماس، قد أثبتت أن بالإمكان، لا السيطرة على الوضع، بل نقل الانفعال إلى المستوى الجهادي والكفاحي.
وقرابة الواحدة ظهر السبت الماضي، كنا جميعا قد تجمعنا لننتقل في الحافلة من نقطة الحدود الأردنية بعد إنجاز المعاملات الرسمية.. كنا نصعد في الطريق التي هبطنا منها، كنا نشعر أننا نفيق الآن من حلم طال لستة أيام بلا انقطاع.. إنها الأرض التي اشتعلت بالدم والأرجوان.

---

*شاعر فلسطيني يقيم في الاردن.